مرکز القائمیة اصفهان للبحوث والتحریات الکمبیوتریة

السلام علیک یا صاحب الزمان

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

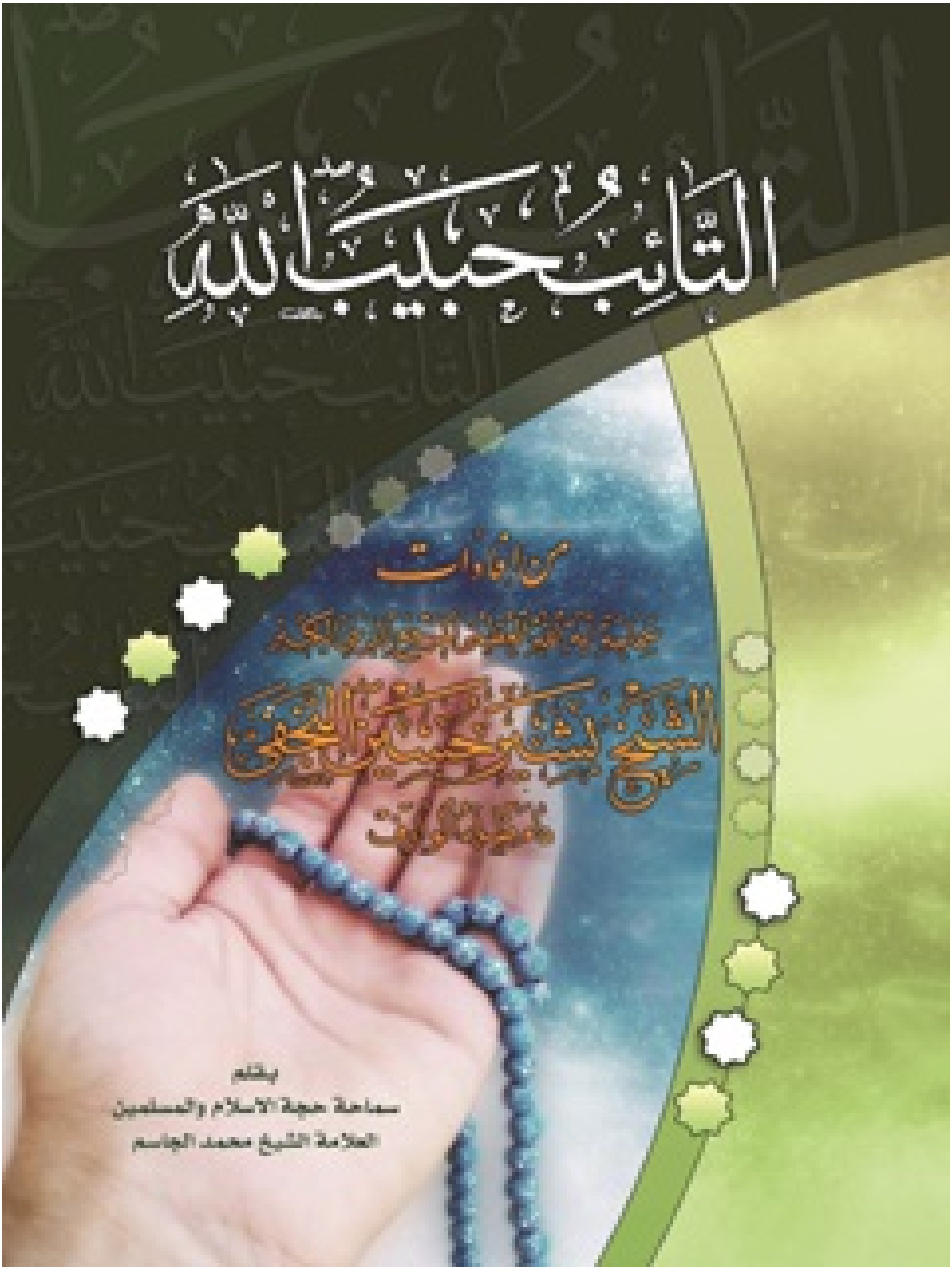
التائب حبيب الله
من إفادات
الشيخ بشير حسين النجفي
بقلم
سماحة حجة الإسلام والمسلمين
العلامة الشيخ محمد الجاسم

بسم الله الرحمن الرحیم

التائب حبيب الله

كاتب:

آية الله العظمي الشيخ بشير حسين النجفي

نشرت في الطباعة:

موسسة الانوار النجفية للثقافة و التنمية

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ---- 5
التائب حبيب الله ---- 7
اشارة ---- 7
اشارة ---- 7
المقدمة ---- 15
معني التوبة والداعي إليها ---- 19
شرائط التوبة ---- 23
اشارة ---- 23
الشرط الأول: ---- 23
اشارة ---- 23
المنشأ الأول: ---- 24
المنشأ الثاني: ---- 27
المنشأ الثالث: ---- 29
المنشأ الرابع: ---- 30
الشرط الثاني: ---- 38
الشرط الثالث: ---- 51
الشرط الرابع: ---- 53
الشرط الخامس: ---- 54
الشرط السادس: ---- 56
التوبة واجبة عقلاً وشرعاً ---- 63
التوبة واجب فوري ---- 73
التوبة واجبة علي الكل ---- 87
فائدة في تحليل التوبة والاستغفارأو الاعتراف بالذنب من المعصوم ---- 97

ما يقتضيه النظر 121
اشارة ---- 121
المنشأ الأول ---- 122
المنشأ الثاني ---- 137
المنشأ الثالث ---- 142
اشارة ---- 142
الأولي توبة المعصومين(عليهم السلام) ---- 142
النقطة الثانية طلب المغفرة بجد ---- 143
النقطة الثالثة ---- 146
المنشأ الرابع ---- 147
المنشأ الخامس ---- 149
الموانع والحواجب عن التوبة ---- 155
الفوائد المترتبة علي التوبة ---- 169
خاتمة فيها أمور الأول في الذنوب: ---- 179
المعاصي المغفول عنها: ---- 188
النصائح والفوائد ---- 199
محتويات الكتاب ---- 205
تعريف مركز ---- 209

التائب حبيب الله

اشارة

الكتاب: التائب حبيب الله

المؤلف: من إفادات سماحة المرجع الديني الكبير آية الله العظمي الشيخ بشير حسين النجفي

بقلم: سماحة حجة الإسلام والمسلمين العلامة

الشيخ محمد الجاسم

الطبعة: السادسة/ صيف2011م-- 1432ه-

ال-ع-دد: 5000 نسخة

المطبعة: دار الضياء للطباعة.

الناشر: مؤسسة الأنوار النجفية (للثقافة والتنمية)

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق ببغداد (339) لعام 2012م

موضوع:توبه (اسلام)

موضوع:توبه كاران

موضوع:توبه (اسلام) -- جنبه هاي قرآني

ص: 1

اشارة

التائب حبيب الله

ص: 2

التائب حبيب الله

من افاوات

سماحة آية الله العظمي المرجع الديني الكبير

الشيخ بشير حسين النجفي

دام ظله الوارف

بقلم

سماحة حجة الإسلام والمسلمين

العلامة الشيخ محمد الجاسم

ص: 3

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ تَعَالَي:

«إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ»

البقرة/222.

«إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَي اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً»

النساء/ 17.

ص: 7

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل علي عبده الكتاب ليكون للعالمين نذيراً والصلاة والسلام علي من أُرسِل رحمةً للعالمين وعلي آله البررة الميامين واللعنة علي شانئيهم إلي يوم الدين.

كان من لطف الخالق ورحمته بالعباد أن منحهم نعمة الوجود ليمهد لهم طريق الرقي إلي المراتب السامية والفوز بالقرب الإلهي فبعث الأنبياء والرسل وأنزل الكتب والصحف ليرشدهم بها إلي الأعمال والطرق التي تُقَرِّبُهم إليه وتزلفهم لديه قال الله سبحانه: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ»((1)), وهو سبحانه غنيٌّ عن عبادة

1- -- سورة الذاريات/55.

العباد مصون ومرتفع عن أن تلوحه رشحة من أخطاء العباد أو تضره معصية العصاة، فكان من عطفه وحنانه أن أسكنهم في الدنيا وابتلاهم وامتحنهم بأنواع التكاليف لِيُمَحِّصَ هم ويجلي نفوسهم ويُطَهِّر قلوبهم وكانت الحكمة البالغة وكان من مقتضاها أن يزلف إليه العباد من خلال المجاهدة والرياضة الروحية والنفسية, يزدلف من خلالها إلي رحاب رحمته ويفوز برضوانه فكانت هناك تكاليف دُعيَ العبدُ فيها إلي الالتزام بعقائد معينة ضمن الإيمان بالله سبحانه وبكتبه وبرسله وبالقادة والأولياء والأئمة المنصوبين من قبله كما شملت التكاليف الأعمال بالجوارح بيّنها من خلال الوحي إلي أنبيائه ورسله وأوضحها الأئمة الطاهرون لتلامذتهم والعلماء الراشدين الذين استفادوا بنور هداهم، وكانت هناك تكاليف بتحريم بعض الأشياء لعلم خالق الكائنات بما تحتوي عليه تلك المحرمات من الأضرار والمصائب والحواجز بين العبد وبين مولاه، وكان من مقتضي حكمته أن أطلق يد العبد بعدما أبان له الخير من الشر وأوضح له الطرق المؤدية إليه ونَبَّهَهُ علي المحرمات والمفاسد التي تُفسده وتُبعِده من جناب قدسه فأصبح العبد مختاراً فهداه السبيل, ليكون شاكراً باختياره وحسن سلوكه, أو كفوراً بقبح سيرته وسلوكه, ليهلك من هلك عن بينه ويحيي من حيّ عن بينة، فسبحان

المبدع الهادي العطوف الرحيم الذي لا ينضب بحر عطائه ولا تزيده كثرة العطاء إلا جوداً وكرماً أنه هو العزيز الوهاب.

لم تشأ ولم ترض رحمته الواسعة دون أن تنظر في انقاذ أولئك الذين تَكْبو بهم أنفسُهم وتزل أقدامهم أو تهبط بهم بطنتهم في مهاوي الرذيلة ومصائد الشيطان بسوء اختيارهم حين ينزلق في ظلمات المعاصي في العقائد أو في الفروع ففتح لهم أيضاً أبواب رحمته ومَهَّدَ لهم الطرق للعودة إلي أحضان عطفه فشرع لهم مناهل التوبة وسفن الاستغفار ليجوزوا بها إلي سواحل جوده وكرمه، فالتوبة بابٌ فتحه الله سبحانه لعباده الذين تَكَدَّرَت نفوسُهم بالضلالة والانحراف عن الطريق واسودت وجوههم بظلمات المعاصي فهتفت بهم الرحمة الإلهية لتبعدهم عن اليأس وتخيفهم من الله وتشجعهم علي التفكير بالرجوع إليه تبارك وتعالي ويُزيح عنهم عناء السفر إليه بقوله: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَي أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً»((1)), ولم تكتف رحمته بالوعد بالمغفرة بل تجاوزت إلي ما لا يمكن ان يصل إليه عطف أي عاطف ورحمة أي رحيم وحنان أي حنين فأوجب عليهم التوبة والاستغفار

1- -- سورة الزمر/53.

ليقتربوا من ساحـة قدسه مع خلق الرغبة فيهم الباعثة علي التفكير في التوبة وتجهيزهم بالقدرة ومسـتلزمات العود إليه ومنحهم القوة وسـد الذرائع وأزال الحواجز، فسبحانه سبحانه.

ص: 12

معني التوبة والداعي إليها

التوبة بحسب مفهومها اللغوي عبارة عن الرجوع إذا كانت من العبد وإذا كانت من الله سبحانه فهي عبارة عن رجوع عطفه تعالي علي العبد وشموله برحمته وعنايته وقبوله في سلك الخاضعين لأوامره ونواهيه.

لا شك في أن العبد حينما يرتكب المعاصي يسقط بها في واد سحيق من البعد عن جناب قدسه تعالي وربما يزيده غروراً وابتعاداً إدرار الرزق وسعته، فإذا رأي أموره مستوسقة ولم يحس بالعثرة في شيء من شهواته ورغباته في الدنيا فيستمر في تمرده وابتعاده عن باب المولي ويغفل عن أن ما لديه من نعم من الصحة والمال والأولاد واستقامة الأمور في حياته الدنيوية الدنية طرد له منه تعالي وربما يكون له استدراجاً كما قال الله سبحانه: «سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ

ص: 13

حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ»((1))، فإذا أستمر العبد في غَيِّهِ وداوم في ضلالِهِ وبقي في طُرقِهما يكون عُرضةً لأن تخترمه المَنية وهو في تلك الحالة، وإليه يشير قوله سبحانه: «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّي إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ – فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»((2)).

اغترار العبد بمباهج الحياة الدنيوية ليس عزيزاً فإن النعم الدنيوية خلابة تستأسر حواس العبد فتزين له مسالك الغي ولكن الله سبحانه يحب عبده فمنحه نعمةَ الوجود ثُمَّ مَنَحهُ الصحةَ والسلامةَ وزوده بالحواس الظاهرية والباطنية ومنحه القوة علي اختيار ما يَشاء كل ذلك من دون سَبْق استحقاق منه عليه سبحانه وتعالي، كلُ ذلك دلائل حُبِّهِ تعالي لهذا العبد ولم يتركه في فيافي الدنيا عرضةً لعواصف الشهوات لتلعب به كما تشاء وتدفعه إلي حيث تشاء بل مَنَّ عليه بالعقل الذي يُمَيِّز له بين الخير والشر وبين ما ينفعه وما يضره وبعث الرسل وانزل الكتب بل نَصَبَ في حياته اليومية في جميع منعطفات هذه الحياة علامات، ونَصَبَ له لافتات تنبهه إلي ما ينبغي أن يسلكه، فمثلاً الصحة والسقم، الولادة والموت، فيري الإنسان قوافل من بني البشر كل يوم تدخل إلي الدنيا وقوافل تغادر

1- -- سورة القلم/44.

2- -- سورة الأنعام/ 44، 45.

هـذه الحيـاة كل ذلك نُصب وعلامات تُذَكِّر العبـدَ به تعالي وتُعلِّمَهُ بأنه لا يتمكن من أن يَفلت من قَبضَتِهِ تعالي وهو عائـد إليه راجع إلي مبدئه، كُلُّ ذلك لِيَذْكُرَ العبدُ ما نَسيه تحت تأثير مباهج الدنيا الخلابة.

وإذا كان مقتضي حكم العقل السليم لزوم الابتعاد عن كل قبيح ولزوم الوصول إلي كل ما هو حسن ومطلوب فكان اللازم هو الالتزام بجادة الصواب والتمسك بطاعته تعالي كـذلك يقتضـي العقل السـليم لزوم العود إلي ساحة العبودية والانضـمام في سـلك المطيعين ليخرج من الظلمات إلي النور، ومن هنا كانت التوبة من أبرز الواجبات علي العبد.

وربما تُفَسَّرُ التوبـة بالنـدم ولعله تفسـير لها بما يـدفع العبد إليها فإن العاقل حينما يلتفت إلي نفسه وما هو فيه من الضـلالة والغّيّ وخُسـران حياته في إطاعة شهواتِهِ وعبادةِ نفسه الأمارة بالسوء – «أفرأيت من اتَخَذَ إلهَهُ هواه»((1)) – نتيجة التذكير والتنبيه من الله سبحانه بالاستمرار وتواصل عطفه عليه لإنقاذه من الظلمات السـحيقة –- أذا التفت العاقل إلي هذا – ينشأ منه الندم ويندفع إلي الأسف علي ما فَرَّطَ في جَنْب رحمته وأتلف حياته سعياً في ابتعاده عن الله سبحانه، فبدافع تلك

1- -- سورة الجاثية/23.

القوة العاقلـة يبحث عما يُعيـد إليه ما فقـد ويرجعه إلي ما أبتعـد عنه فيكون النـدم والحسـرة والأسف بواعث له علي عَودِهِ إلي حنان رحمته، فالمقتضـي الأساسـي والباعث الحقيقي هو إدراكه للخسارة التي اندفع إليها اسـتجابةً لشهواته فيندفع إلي التفكير في كيفية عوده إلي الباري عز وجل.

ص: 16

شرائط التوبة

اشارة

قـد عرفنا أن توبـة العبد عبارة عن رجوعه إلي سـلك العبودية وعوده إلي أحضانها وانخراطه من جديد في سـلك المطيعين له تعالي وهي لا تتحقق إلا بأمور يُعَبَّر عنها بشرائط التوبة، وهي كثيرة نذكر الأهم منها والتي تشكل المحور الأساسي أو العمود الفقري للتوبة.

الشرط الأول:

اشارة

الندم علي ما صدر منه من المعاصي وما ارتكبه من الآثام وتقحمت به نفسه الأمارة بالسوء فيه من العثرات.

والندامة عبارة عن أن يعصر قلبه علي التحسر والأسي والغم والحزن وتقتحم هذه المعاني عمق قلبه فتستولي عليه فتفقده

ص: 17

الاستقرار والهدوء والطمأنينة فلا يجدها إلا في الرجاء لقبولِهِ تعالي له وسماحِهِ له بأن يقف علي بابه في جملة السائلين الآملين عَفوهُ والراجين رحمته والخاضعين لأوامره.

فعن الإمام الصادق(عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين(عليه السلام): إن الندم علي الشر يدعو إلي تَرْكِهِ.

وعن أبي جعفر الباقر(عليه السلام) قال: كفي بالندم توبة((1)).

وينبغي أن نعلم أن أهم مناشيء هذا المعني من الندم أربعة:

المنشأ الأول:

أن يدرك فقدانه لمقامه في قلوب الناس وانعدام مكانته الاجتماعية، فإذا أحس بإعراض الناس عنه وأدرك أنه كاد أو يكاد أنْ ينبذَهُ الناس فيحسّ بالندم، فيري نفسه تحت ضغط هذه الخسارة ويعتقد نفسه مطحوناً برحي الألسن التي تقرضه أينما أتجه.

ومثل هذا الندم يزيد العبد بُعْدَاً من الله سبحانه لأنه يكشف عن أنه استحوذ عليه حب الدنيا والجاه والمنزلة في قلوب الناس فهو في عمق بؤرة الفساد بخضوعه لعوامل هوي النفس بالرياء

1- -- أصول الكافي ج 2 باب الاعتراف بالذنوب والندم عليها ص 426 ح 1.

الذي هو قسم أو شعبة من شعب الشرك، وعن علي بن أبي طالب(عليه السلام): أنَّ يسيرَ الرياء شرك((1))،

بل عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام): كل رياء شرك، أنه من عمل للناس كان ثوابه علي الناس، ومن عمل لله كان ثوابه علي الله((2)).

وعنه(عليه السلام): في قول الله(عزوجل): «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً»((3)) قال: الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله وإنما يطلب تزكية الناس يشتهي أن يسمع به الناس فهذا أشرك بعبادة ربه، ثم قال: ما مِن عَبدٍ أسرَّ خيراً فذهبت الأيام أبداً حتي يُظهر الله له خيراً، وما مِن عَبدٍ يسرُّ شراً فذهبت الأيام أبداً حتي يُظهِر الله له شراً((4)).

وعنه(عليه السلام) قال: قال رسول الله(صلي الله عليه و آله): سيأتي علي الناس زمان تخبث فيه سرائرهم وتحسن فيه علانيتهم طمعاً في الدنيا لا يريدون به ما عند ربهم يكون دينهم رياءاً لا يخالطهم خوف يعمهم الله بعقاب فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجيب لهم((5)).

1- -- نهج البلاغة الخطبة 86.
2- -- أصول الكافي ج 2 باب الرياء ص293 ح 3.
3- -- سورة الكهف/110.
4- -- أصول الكافي ج 2 باب الرياء ص293 - 294 ح 4.
5- -- المصدر السابق ص 296 ح 14.

ويلحق بهذا النحو من الندامة في القبح والبشاعة حَسْرَةُ الإنسان وندامته علي ما صدر منه خوفاً علي فوت طريقه إلي الرئاسة الدنيوية ولو كان تحت غطاء ديني، فعن أبي الحسن(عليه السلام) أنه ذكر رجلاً فقال: أنه يحب الرئاسة، فقال: ما ذئبان ضاريان في غنم قد تَفَرَّق رعاؤها بأضرّ في دين المسلم من الرئاسة((1)).

وعن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام): إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون فو الله ما خَفَقَتْ النعالُ خلف رجلٍ إلا هَلَكَ وأهلَكَ((2)).

الظاهر أن المقصود بمن أُشيرَ إليهم في هاتين الروايتين هو من طلب الرئاسة من دون استحقاق علي غرار قول أمير المؤمنين (عليه السلام) (أما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة وانه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحي..)((3))، وأما أهلُها فهم لا يحبونها بما هي وإنما يطلبونها كوسيلة لإحقاق الحق وإزهاق الباطل كما يشير إليه مولي المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) بقوله: (فو الذي فَلَقَ الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر ومَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَي الْعُلَمَاءِ أَلا يُقَارُّوا عَلَي كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلا سَغَبِ مَظْلُومٍ لأَلْقَيْتُ

1- -- المصدر السابق باب طلب الرئاسة ص 297 ح 1.

2- -- المصدر السابق ح 3.

3- -- نهج البلاغة الخطبة 3، و بحار الأنوار ج 29 باب شكاية أمير المؤمنين(عليه السلام) ص497، والاحتجاج ج1 ص 192.

حَبْلَهَا عَلَي غَارِبِهَا ولَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا ولأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ...)((1)).

ومن خطبة له(عليه السلام) عند خروجه لقتال أهل البصرة قال عبد الله بن عباس: دخلت علي أمير المؤمنين(عليه السلام) بذي قار وهو يخصف نعله فقال لي: ما قيمة هذه النعل؟

فقلت: لا قيمة لها.

فقال(عليه

السلام): (والله لهي أحب إليّ من إمرتكم إلاّ أن أقيم حقاً أو ادفع باطلاً)((2)).

المنشأ الثاني:

أن ينتبه العبد بعدما ينغمر في المعاصي أو يسود محياه بقباحة الآثام ويتسم جبينه بميسم العتاة أنه قد أصبح محط غضبه تعالي ومستحقاً لعقابه وعتابه، فإذا مرَّت عليه آيةٌ من آياتِ العذاب أو استمع إلي كلمةٍ من واعظ ناصح أو مرشد صالح تبرز أمام عينيه شعل نار جهنم فيراها بعين البصيرة ويحس لظاها بإحساسه الباطني ويتعقل لفحاتها علي حر وجهه ويستشعر المقامع من

1- -- المصدر السابق.

2- -- نهج البلاغة الخطبة 33.

حديد بأيدي ملائكة أشداء غِلاظ ينترونه ويأتيه الموت من كل مكان وهو في قعرها وليس بميت، فتتولد عنده الندامة والحسرة ويحس بعصرات الحزن علي ما فَرَّطَ في جَنبِ الله ويشمله الخوف من سوء العاقبة.

إنَّها ندامةٌ حسنةٌ ولكن رجوعَهُ إلي طاعة الله بدافع هذه الندامة يجعله في عداد العبيد الذين يطيعون المولي مخافة عقوبته أو يتحاشون سوء منقلبهم، وهذه الندامة ممدوحة وإليها يشير قول أمير المؤمنين(عليه السلام) في وصفه للمتقين (فهم والنار كَمَن قد رآها فهم فيها معذبون) ((1))، وجاء في ضمن كلامه(عليه السلام) في هذه الخطبة: (وإذا مَرّوا بآيةٍ فيها تخويف أصغوا إليها مسامِع قلوبِهِم وظنوا أنَّ زفيرَ جهنَّم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم حانُون علي أوساطِهِم مُفتَرِشون لِجِباهِهِم واكفِهِم ورُكَبِهِم وأطراف أقدامِهِم يطلبون إلي الله تعالي في فكاك رقابهم)((2))،

وإليه يُشير قوله سبحانه: «قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ»((3))، وغير ذلك من الآيات التي تذكرنا قبح المنقلب للعصاة.

ص: 22

1- -- المصدر السابق الخطبة 191.

2- -- المصدر السابق.

3- -- سورة التحريم/6.

المنشأ الثالث:

أن ينتبه العاصي إلي ما فقده من الثواب واستحق الابتعاد والحرمان من الجنة ونعيمها وحورها وغلمانها وأنهارها وبساتينها ولذائذها ومشتهياتها لأنها تُزْلَف إلي المتقين فقط، فينظر إلي عظمة تلك النعم التي يشير إليها قوله تعالي: «وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً»((1)), وإلي هذا المعني يشير كلام سيد الأوصياء(عليه السلام) في وصف المتقين: (فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون)((2)).

فيدرك بعقله السليم بل يشاهد بالبصيرة التي جعلها الله تعالي حجة باطنة عليه انه قد خسر خُسراناً مبيناً وقد استحق الحرمان من تلك النعم وسعي في استبدال تلك النعم بلذة فانية عابرة أعقبته الحسرة وجعلته في قفص الحزن الشامل، ولا يدري كيف يستعيد استحقاقه لتلك النعم ولا يعلم مدي انتفاعه بالبكاء والحزن، فإن الندامة وان كانت أساس التوبة وقد وعد الله بقبولها وهو لا يخلف الوعد إلا أنه لا يدري ولا يحرز انه قد وُفِّقَ لتلك التوبة وبالمعني المطلوبة هي منه، فلا يطمئن إليها فلا ترقأ له دمعة ولا تخف عليه وطأة الحسرة، وكم من عبدٍ صالحٍ انزلقت قَدَمُهُ إلي شيءٍ من المعاصي - فدامت

1- -- سورة الإنسان/20.

2- -- نهج البلاغة الخطبة 191.

حسـرتُهُ واسـتمر بكـاؤهُ وهو يعلم أنَّ من لم يرتكب المعصـية خيرٌ مِمَّن ارتكبها واقتحمها - ثم يبكي ويسـعي في طلب العفو ولا يضـمن وصوله إليها.

المنشأ الرابع:

وهو أعلي واشـرف من جميع المناشيء، وهو أن يتأمل العبد في نفسه وفيما ارتكبه واقتحمه وأنه استحق من المولي الطرد عن بابه وحُرِمَ قُربَهُ ورضاه ومُنِعَ من طَرْقِ بابه ومن الاقتراب إلي جنابه، فيري بعين البصـيرة عبادَ الله المخلصـين قد مُنِحوا مراتبَ من قُربِهِ تعالي فيعصره الأسي والحزن ويتـألم تحت وطـأته ويتملمـل تململ السـليم لأنه يري نفسه مطروداً من جناب قُدسه منهياً عن محاولـة الاقتراب منه قـد أفقـدته المعصية حلاوةَ المُناجاة معه تعالي وسَحبت من يده وسائل الارتقاء إلي معارج رحمته تعالي، فقد استحق فقدان الرضوان الإلهي الذي هو أحب إلي عبـاد الله سـبحانه من الجنـة واقرب إلي قلـوبهم من الابتعـاد من النـار وإلي هـذا المعني يشـير قـوله تعـالي: «وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ»((1))، وروي عن المعصوم (سلام الله عليه) أنه قال: الجلوس في المسجد أحب إلي من الجلوس في الجنة

ص: 24

1- -- سورة التوبة/72.

لأن الجلوس في الجنة فيه رضا نفسي والجلوس في المسجد فيه رضا ربي وهو أحب إلي من رضا نفسي.

ينبغي أن يعلم أن أقرب الوسائل وأدني الطرق الموصلة إلي الله سبحانه هو حُبّك له تعالي، وقد فُسِّرَ الحُبُّ بالميل إلي المحبوب واعتقد انه تفسير باللازم فإن واقِعَهُ عبارة عما يقتضي الميل والاندفاع إلي المحبوب والتقرب من جنابه فهو في الحقيقة عبارة هو التلاؤم والتناسب الخاص بين المحب والمحبوب الذي قد يكون تكوينياً ناشئاً من أفعال أو رياضات معينة وقد يكون منحةً من واهب الوجود ويترتب عليه التجاذب بين المتحابين أو الانجذاب نحو المحبوب والإدراك لكمال المحبوب ثم التأثر به فهو أيضاً متأخر رتبة عن أصل الحب، وقد يكون المحب منجذباً إلي شخص أو جهة ولكن ربما لا يتميز لديه من يوجد بينه وبين ذات المحب منشأ الانجذاب فيتوقف علي المعرفة والتشخيص فربما يتخيل أن الحب متوقف علي التشخيص والتعيين فبمقتضي التكوين يوجد بين العبد الممكن الوجود وبين واهب الوجود وباقي النعم ما يقتضي الانجذاب إليه ولكنه يجهل منبع تلك الخيرات فربما يعزوها إلي غيره أو يخلق بجهله الأنداد والشركاء لذلك الواهب فيضل، ومن هنا يتبين أن معرفة منبع كل خير وكل شرف تخلص الإنسان من

هذه الاشتباهات، ومن هنا نعرف مدي التشتت والوهم الذي انزلقت فيه الأفهام في مقام تعريف الحب وتحديد مغزاه.

تنبيه

قـد تغلب دواعي الغريزة علي العقـل والنفس السـليمة أو تسـتولي قوة الخيال فيتيه بصاحبه في دهاليز دوافع وقتيـة وظلمات اللـذات الزائلة فيتخيل كل ما يلائم دواعي وبواعث اللذة المحسوسة من منظر حسن وصوت رخيم ومنظر رائق في العين أو تتأثر منه غريزة الجنس والنكاح فيكون منبع هذه الأمور جاذباً فينجذب إليها بعضٌ ويكون ذلك شبيهاً للحب الواقعي ويتبخر ذلك بعدما يُسـفِر الليل عن صـبحه فينكشف الواقع ويتقشع الظلام فيـدرك الإنسان القباحة فيما تخيله جميلاً والمعاندة والمضادة بين نفسه وبين ما كان يعتقده ملائماً ومناسـباً له فيدرك أن مـا كان يعتقـده ماءاً كان سـراباً، ولا يمكن التخلص من حبائل الخيال ودوافع الغريزة إلا بالتوفيق والتسديـد من الله سـبحانه وتعالي، أو يكون الإنسان في المرتبـة الساميـة كسـيد الأوصـياء(عليه السـلام) فيقول: (إليك عني يا دُنيا فحبلك علي غاربك قـد انسـللتُ من مخالبكِ وافلَتُ من حبائِلِكِ واجتنبتُ الذهابَ إلي مداحضِكِ، أين القوم الذين غَرَرْتِهِم بِمداعبكِ، أين الأمم الذين

فتنتِهم بزخارفك، هاهم رهائنُ القبور ومضامين اللحود، والله لو كُنتِ شـخصاً مرئياً وقالباً حِسّـيّاً لأقمتُ عَليكِ حـدودَ الله في عِبادٍ غَرَرتِهم بالأمـاني وأُمَمٍ ألقيتِهم في المهاوي وملوكٍ أسـلَمتِهم إلي التلف وأورَدتِهم مواردَ البلاء إذ لا وِرد ولا صـدر، هيهات، من وطأ دحضك زلق، ومن رَكِبَ لجَجَك غرق، ومَن ازورّ عن حبائلكِ وُفِّقَ، والسالمُ مِنكِ لا يُبالي إن ضاقَ بهِ مَناخه والـدنيا عِنده كيوم حان انسـلاخُهُ، أعزبي عني فو الله لا أذلُ لَكِ فتسـتذليني، ولا أسلس لك فتقوديني، وأيم الله يميناً أستثني فيها بمشيئة الله لأروضنّ نفسي رياضةً تَهش مَعها إلي القُرص إذا قـدرت عليه مَطعومـاً وتقنع بالملـح مأدومـاً، ولأدعنّ مقلتي كعين ماء نَضَبَ مَعينُها مسـتفرغةً دموعها، أتمتلئ السائمـةُ من رعيها فَتَبْرُكَ وتَشـبع الرَّبيضـةُ من عُشـبها وتربض، ويأكلُ عَليٌّ من زادِهِ فَيَهجَع! قُرّت إذن عَينُهُ إذا اقتدي بعد السـنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعية، طوبي لِنفسٍ أدَّتْ إلي رَبِّها فَرْضَـها وعَرَكَت بجبنها بؤسـها، وهَجَرَت في الليل غمضـها حتي إذا غَلَبَ الكَرَي عليها افتَرَشَتْ أرضَها وتَوسَّدَتْ كَفَّها في مَعشَرٍ أسهَرَ عُيونَهم خوفُ مَعادِهِم، وتَجافَتْ من مَضاجِعِهم جُنُوبُهُم،

وهَمْهَمَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِم شِفاهُهُم وتَقَشَّعَتْ بِطُولِ استِغْفارِهِم ذُنُوبُهم، أولئكَ حِزبُ الله ألا أنَّ حِزبَ الله هُم المُفلِحون)((1)).

وإذا اتضـح أن الحب هو التناسب والتلاؤم المؤدي إلي الانجـذاب يظهر لك أن جل ما قيل في معناه يرجع إلي ذكر ما يترتب عليه فما نقل عن جمهور المتكلمين من إنَّ المحبـة نوعٌ من الإِـرادة ومعلوم أنه لاـ تعلّق لها إلا بالحوادث، وما بُنيَ علي هـذا الكلام من إنَّ مَحبـةَ العِباد لربهم محبـةُ طـاعتِهِ وابتغـاء مرضـاتِهِ واجتنـاب مـا يوجب سـخطه وعقابه ومحبـة الله تعالي لعباده أرادة أكرامهم وان يُثيبَهم أحسن الثواب ويرضي عنهم ويصونهم عن المعاصي((2)) كلُ ذلك مما يترتب علي الحب.

وهكذا تفسيره بأنَّه إدراكُ الكمال مِن حيث انه مؤثر، وكلما كان الإدراك أتم والمدرك أشد كمالية مؤثرة كانت المحبة أكمل((3))، فإنه أيضاً ممّا يترتب علي المحبة، فإنَّ الإدراكَ المذكور فِعلٌ ينشأ عن مَنشأ وهو الحُب.

1- -- نهج البلاغة/ قطعة من كتاب إلي واليه علي البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري رقم الكتاب 45.

2- -- رياض السالكين ج2 ص254

3- -- المصدر السابق.

وهكـذا التفاسـير الأ-خري المعروفـة مثل المحبـة هي أنمحاء القلب عما سوي المحبوب، وهو صـريح في أن الحبَّ سابقٌ علي الانمحاء، وكـذلك قولهم المحِبـةُ نارٌ تُحرِقُ ما سوي المُراد المحبوب، وقول آخر المحبـة الموافقة في جميع الأحوال، وقول آخر المحبة بَذل المجهود والحبيب يفعل ما يريد، وقول آخر المحبة ميلُكَ إلي الشـيء بِكُليتك ثم إيثارك له علي نفسك وروحك ثم موافقتك له سّ۔راً وجهراً فيما سَرَّكَ أو ساءكَ ثم علمك بتقصـيرك في حقِّه، وقول آخر المحبةُ ما لا تنقصه الإساءة ولا يزيده الإحسان ولا ينسيه القرب ولا يسليه البعد، فإنَّ هذه المعاني كلها تَنشأ عن مَنشأ وذلك هو عبارة عن الحب.

ثم أعلم انه قـد أفاد بعض الأجلاء ان الحب تابع للمعرفـة والإدراك فينقسم بحسب انقسام المُدرَكات والحواس فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات ولكل واحدة منها لذة في بعض المدركات وللطبع بسـبب تلك اللذة ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع السـليم، فَلَذةُ العين في الإبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة، ولَذة الأذن في النغمات الطيبة الموزونة، ولَذة الشم في الروائح الطيبة، ولَذة الذوق في الطعوم، ولـذة اللمس في اللين والنعومـة، ولمّا كانت هـذه المـُدرَكات بالحواس ملـذة كانت محبوبة أي كان للطبع السـليم ميل إليها، واستشهد بقولٍ منسوب إلي

النبي الأعظم(صلي الله عليه و آله): حُبِّبَ إليَّ من دُنياكم ثلاث الطيب والنساء وجُعلت قُرة عيني في الصلاة((1)).

ثم دَخَلَ في توضيح أسباب الميل وذَكَرَ مِنها ميله إلي دوام وجوده ونفوره عن عدمه وهلاكه، ومنها الإحسان وان الإنسان عبد الإحسان وقد جُبِلَت القُلوب علي حُب من أحسن إليها، وأيَّدَهُ بما روي عن رسول الله(صلي الله عليه و آله) انه قال: (اللهمَّ لا تجعل لفاجر عليَّ يَداً فيحبه قلبي)((2))، ومنها ميل الإنسان لذات المحبوب لجماله وحسنه، ومنها المناسبة الخفية بين المُحِب والمَحبوب إذ رُبما تتأكد المحبة بين شخصين بمجرد تناسب الأرواح، ونُسِب إلي النبي الأعظم(صلي الله عليه و آله) الأرواحُ جُنودٌ مُجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف.

ثم أفاد بان هذه الأسباب كلها مجتمعة بنحو آكد في ذات الباري، فهو الأحق بالحب لأنه هو المحسن الحقيقي وهو الجميل بالجمال الواقعي وهو السبب الأساسي لوجودك، وأطال الكلام في إثبات هذه المعاني.

ولكن ينبغي أن يُعلَم انه (رضوان الله عليه) أرجع أسباب الحب إلي ما يترتب عليه الميل ثم جعل تلك الأسباب مناشيء اللذة المتولدة

1- -- المحجة البيضاء ج 8 ص 8-- 9.

2- -- البحار ج 83 باب التعقيب المُختص بصلاة الفجر ص 186، وأخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ.

من الإدراك، وإذا تأملت في معني الحب وجدتَ ان الإدراك واللذة من توابعه وليس من أسبابه.

ثم لا يكاد ينقضي تعجبي من انه كيف يجعل حب الإنسان الحقيقي للخالق وميله إليه تعالي بدافع اللذة بأي معني فسرت اللذة.

هـذا، والـذي ينبغي أن يُقال أن الحب هو ما قلناه من انه تلاؤم وتناسب يؤدي إلي الجـذب والانجذاب وهذا أمر تكويني يحصل في بعض مراتبه بالقضاء والقـدر والبعض الآخر بالكسب بالعبادات والطاعات والرياضات المؤدية إلي ذلك المعني الذي اشـرنا إليه، ولجهلنا بالطرق التي تؤدي بنا إلي ذلك المعني يجب أن نتلقي الطرق والرياضات من واجب الوجود وهو إحـدي الحكم والأسـباب التي تقتضـي أن تكون العبادات توقيفيـة، ولعله إليه يشـير الحـديث القدسـي: (من أهان لي وليا فقـد أرصـد لمحاربتي، وما تقرب إلي عبـد بشـيء أحب إلي مما افترضت عليه وإنه ليتقرب إلي بالنافلة حتي أحبه، فإذا أحببته كنت سـمعه الذي يسـمع به وبصـره الذي يبصـر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته، وما ترددت عن شيء أنا فاعله كترددي عن موت

المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته)([(1)])، وكذلك ما روي: عبدي اطعني تكن مثلي....

هذا ملخص الشرط الأول أعني الندم.

الشرط الثاني:

ترك المعصية في الحال والعزم علي أن لا يعود إليها في الاستقبال.

اعلم يا أخي ان ترك الذنب والعزم علي عدم العود بل وكذلك الندم لا يتحقق شيءٌ منها إلا بعد معرفة الذنب والذنوب علي جملتها تنقسم إل قسمَيْن:

احدهما: الجلي، وهو الذي نعرفه أو يمكن معرفته ضمن الذنوب المنصوص عليها شرعاً والممنوع منها علي لسان الصادع بالشرع المقدس، وقد سطرها العلماء وفسرها الفقهاء في الكتب المفصلة والمختصة بها.

القسم الثاني: الخفي، وهو الذي يرتكبه الإنسان لقبح سريرته وسوء سيرته فيعود إلي قبح مآله ومنقلبه وفي معظم الأحيان يبقي

1- -- أصول الكافي ج2 باب من آذي المُسلمين واحتقرهم، ص352 ح8.

غافلاً عنها طول حياته إلا من عصمه الله ونَبَّهَهُ علي غفلته وأمسكت به يد رحمته وعطفه فمنعته عن عثرته وحالت دون كبوته.

وهو أنه كثيراً مـا يري العبـد نفسه منشـغلاً في العبـادة ومتعباً نفسه وساحقاً لـذاته ومتلفاً لأوقاته وباذلاً لمهجته فيها إلا أنه يأتي بها علي انها عبادة في زعمه ولكنها تكون معصية في لبها وواقعها فلا يزداد مهما طال أمده فيها إلا بُعداً عن الله سبحانه وذلك انه إذا أتي بمأمور به واعتقد أو احتمل في حق نفسه انه أتي بما هو مطلوب منه شـرعاً أو هو مُلزَم به عقلاً، فإذا حاسبتَ نفسك يا أخي وَجَدْتَ أن جل أعمالك تدخل في هـذا المعني، فتعتقد انك توضأتَ بالوضوء المأمور به أو اغتسـلتَ بالغسل المطلوب وقُمتَ في مُصـلاك فأتيتَ بالصـلاة المطلوبة فإن نفس الاحتمال فضلاً عن الاعتقاد والجهل الذي يعيشه الجهال والتائهون في فيافي العمر والضلالة خوض او انزلاق في مهوي المعاصي وخروج عن حـدود العبوديـة والطاعـة إذ تجعلك في عالم الاحتمال فضـلاً عن الاعتقاد انك بالمسـتوي المطلوب، وهـذا المعني لم يعتقـده حتي المعصوم (سـلام الله عليه)، فجاء في بعض الأدعيـة المرويـة عن زين العابدين (عليه السـلام): (اللهمَّ إن أحداً لا يبلغ من شـكرك غايةً إلاّ حصل عليه من إحسانك ما يلزمه شكراً، ولا يبلغ مبلغاً من طاعتك وإن اجتهد إلاّ كان مقصراً دون استحقاقك بفضلك، فأشكرُ عبادك عاجزٌ عن شُكركِ، وأعبدُهم مُقَصرٌ عن

طاعتك، لا يجب لأحد أن تغفر له باستحقاقه، ولا أن ترضي عنه باستيجابه، فمن غفرتَ له فبطولك، ومن رضيتَ عنه فبفضلك)((1)).

وإلي هذا المعني يشـير سيد الشهداء (عليه السلام) في دعائه يوم عرفة: (لو حاولتُ واجتهدتُ مدي الأعصار والأحقاب لو عمرتها أن أؤدي شكر واحدةٍ من نعمائك ما استطعتُ ذلك إلا بِمَنِّكَ الموجب عليّ به شكرك أبداً جديداً وثناءاً طارفاً عتيداً، أجل لو حرصتُ أنا والعادّون من أنامـك أن نُحصـي مـدي إنعامك سالفه وآنفه ما حصـرناه عـدداً ولا أحصـيناه أمـداً، هيهات أني ذلك وأنت المُخبِرُ في كتابك الناطق والنبأ الصادق «وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا»((2)) صدق كتابك اللهمَّ وإنباؤك وبَلَّغت أنبياؤك ورسلك ما أنزلت عليهم من وَحيك وشرَعت لهم وبهم من دينك)((3)).

ولو تأملتَ يا أخي في جل عباداتك لوجدتَ خُطور هذا الاحتمال القبيح في مبدئها أو وسطها أو منتهاها وهو مبدأ العجب الذي يُهلِكُ كُلَّ من ابتلي بهِ، وان نظرتَ بعين العقل وحَكَّمتَ ضميرك لَدريتَ أن كُلَّ عباداتِك تصب في قالب هذه المعصية ومن

1- -- الصحيفة السجادية من دعائه عليه السلام إذا اعترف بالتقصير عن تأدية الشكر.

2- -- سورة النحل آية 18.

3- -- راجع كتب الأدعية ومنها مفاتيح الجنان في أعمال يوم عرفة.

ثم تعرف مدي عَطفه وإحسانه تعالي في إغضائه عنك وحَشْرِك في ضمن المطيعين وتركه لك أن تقف في صفوف عباده الصالحين، ويسمح لعباده أن يسموك بسمات الصالحين كالمصلي والصائم والمتعلم والعالم وهو يعلم ما أنت وفيما فيه أنت.

ثم استمرارك في هذه الاحتمالات فضلاً عن الاعتقادات استمرارٌ في الغيِّ واستدامةٌ في الضلالة، ولهذا يتبرأ المتقون عن مثل هذه الاحتمالات ويطلبون من الله النجدة والعون للتخلص من مهاوي عواقب هذا الاعتقاد كما أشار إليه سيد الأوصياء(عليه السلام): (حتي إذا زكي احدهم خاف مما يقال له فيقول أنا أعلم بنفسي من غيري وربي أعلم بي مني بنفسي، اللهمَّ لا تؤاخذني بما يقولون واجعلني أفضل مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون)((1)).

واعلم يا أخي أنه قد تقدم أن التوبة لغة هي الرجوع عن الذنوب إلي ستار العيوب وعلام الغيوب ولكن الرجوع يختلف باختلاف المعاصي فما كان من الذنب الذي يعتبر معصية بين العبد وبين ربه مثل ترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به فالرجوع من هذا القسم يتم بالندم علي ما صدر والعزم علي عدم تكرار ما كان قد ارتكبه، وهذا القسم ينقسم إلي قسمين:

1- -- نهج البلاغة من ضمن خطبة همام المعروفة في صفات المتقين، رقم 191.

احـدهما: أن لا يكون للمعصـية تـدارك في مقام العمل، يعني لا يجب القضاء فيكفي في الرجوع عن مثله الندم والعزم والاسـتغفار وهو أن يطلب من الله سبحانه أن يتجاوز عما فعل، وستأتي الإشارة إلي معني الاستغفار.

القسم الثاني: ما يمكن تـداركه فيجب فيه القضاء كالصـلاة والصوم والحج، فانه من ترك شـيئاً من هذه الواجبات فلا تتحقق التوبة إلا بالندم بالمعني المتقـدم والعزم علي الالتزام بجادة الصواب وطريق الطاعـة وقضاء ما فاته من الواجبات، هذا ما كان من المعاصـي بين العبد وبين ربه، والأمر فيه إذا لـم يكن شركاً أهون من القسم القادم فإن العفو فيه أرجي وأقرب، فقد روي في الكافي مرفوعاً إلي أمير المؤمنين (سلام الله عليه): الذنوب ثلاثة فذنب مغفور وذنب غير مغفور وذنب نرجو لصاحبه ونخاف عليه، فقيل يا أمير المؤمنين فبَيِّنها لنا، قال: نعم، أما الذنب المغفور فعبد عاقبه الله علي ذنبه في الدنيا فالله تعالي أحلم وأكرم من أن يعاقب عبده مرتين.

وأمـا الـذنب الـذي لا يغفره فظلم العباد بعضـهم لبعض أنَّ الله إذا برز لخلقه اقسم قسـماً علي نفسه وقال وعزتي وجلالي لا يجوزني ظلم ظالم ولو كف بكف ولو مسحة بكف ولو نطحة ما بين القرناء

إلي الجمّاء، فيقتص للعباد بعضهم من بعض حتي لا تبقي لأحدٍ علي أحدٍ مظلمة، ثم يبعثهم الله للحساب.

وأما الذنب الثالث فذنبٌ ستره الله علي خلقه ورزقه التوبة منه فاجمع خائفاً من ذنبه راجياً لربه، فنحن له كما هو لنفسه نرجو له الرحمة ونخاف عليه العذاب((1)).

والقسم الثاني من الذنوب الذي يتعلق بالعباد وحقوهم كترك الزكاة وقتل النفس وغصب الأموال المحرمة وشتم الأعراض وكل تناول من حق الغير، ومن ذلك أيضاً تناول الدِّين من الإغواء والبدعة والترغيب في المعاصي وتهييج أسباب الجُرأة علي الله كما قد يفعله بعض الوعاظ فيغلب جانب الرجاء علي جانب الخوف فيصير سبباً لضياع حقوق الناس عليه من الهداية والإرشاد إلي طريق النجاة وهو يضلهم، وقد روي أن من كان سبباً لضلال أحد لن يُغْفَرَ له حتي يهدي من أضله.

وهذه المعاصي التي لها علاقة بالعباد فمظالم العباد ولابد أن يطالب بها حتي يتخلص منها، فالتوبة عن مثل هذه الذنوب لا تتحقق إلا بالخروج من تلك الحقوق كما تشير إليه الرواية المتقدمة وروايات أخري منها ما رواه الكليني (رضوان الله عليه) عن أبي

1- -- أصول الكافي ج2 باب (في أن الذنوب ثلاثة) ص443 ح1.

جعفر الباقر (سلام الله عليهما): قال الظلم ثلاثة، ظلمٌ يغفره الله وظلم لا يغفره الله وظلم لا يدعه الله، فأما الظلمُ الذي لا يغفره فالشرك، وأما الظلم الذي يغفره فظلم الرجل نفسه فيما بينه وبين الله، وأما الظلم الذي لا يدعه فالمداينة بين العباد((1)).

وروي الصدوق (رضوان الله عليه) عن الإمام الصادق(عليه السلام) الرواية المذكورة وزاد: ما يأخذ المظلوم من دين الظالم أكثر مِمّا يأخذ الظالم من دنيا المظلوم((2)).

وروي علي بن إبراهيم عن شيخ من نخع قال: قلت لأبي جعفر(عليه السلام) إني لم أزل والياً من زمن الحجاج إلي يومي هذا فهل لي من توبة؟ قال: فسكت، ثم أعاد عليه فقال: لا، حتي تؤدي إلي كل ذي حق حقه((3)).

وروي عن الإمام الصادق(عليه السلام) قال: قال رسول الله(صلي الله عليه و آله): من اقتطع مال مؤمن غصباً بغير حق لم يزل الله معرضاً عنه ماقتاً لأعماله التي يعملها من البر والخير لا يثبتها في حسناته حتي يَردّ المال الذي أخذه إلي صاحبه((4)).

1- -- وسائل الشيعة باب 52 وجوب رد المظالم إلي أهلها ح 1.

2- -- المصدر السابق ح 20.

3- -- المصدر السابق ح 3.

4- -- المصدر السابق ح 6.

تنبيه:

اعلم يا أخي انه ليس في الوجود صاحب حق عليك أحق وأليق وأحري لأن تسعي في أداء حقه والخروج من عهدة ما مَنَّ به عليك مِن الله سبحانه وتعالي، فإنَّ أول حقوقه هو نعمة الوجود وما منح لك من توابعه من النعم الظاهرة والباطنة، ومِن ابرز ذلك انه سبحانه دعاك إلي الشكر ووعدك بالمزيد ان سلكت طريق الشاكرين قال تعالي: «لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ»((1)), ولو تأملت في نعمه تعالي وأدركت انك لا تستطيع شكر شيء إلا بتأييد وإرشاد وتوفيق منه وبما أعطاك من القدرة لعلمت أن ذلك يكشف لك مزيد استحقاقه للشكر، ومن هنا اعترف الأنبياء والأئمة والصلحاء بالعجز عن كمال الشكر ولذا قيل كل نعمة يمكن شكرها إلا نعمة الله تعالي فإن غاية شكرها الاعتراف بالعجز عنها وذلك أن شكر نعمته مِنَّةٌ فيجب علي العبد شكرها ثم عليه الشكر علي الشكر وهكذا إلي ما لا ينتهي، وما لا نهاية له فنهايته في بدايته، فينبغي أن يسند العبد من الابتداء إلي العجز ظهرَهُ ويبني علي الاعتراف بالتقصير أمره فيكون معرفة التقصير من الشكر شكراً وإلا فأني يبلغ العباد شكر الرب الجواد وأين يقع الحالي من الأزلي والذي لا يبقي من الذي لا يفني بل

1- -- سورة إبراهيم/7.

الجزء الذي في حكم ما لا يتجزأ من الشيء الذي لا يتناهي((1))، ومِن هنا نعرف عجزنا عن حق عبادته كما يستحق، ومِن عجزنا عن أداء حقوق الله في الشكر والعبادة والطاعة والانجذاب إلي حرم قدسه وحمي عطفه نعرف عجزنا عن حقوق الأنبياء والأئمة المعصومين(عليهم السلام).

وأما حقوق الناس فقد اشرنا إلي المالية منها، وأما حقوقهم غير المالية فإن كان إضلالاً وجب الإرشاد، وان كان قصاصاً وجب إعلام المستحق له وتمكينه من استيفائه فيقول له أنا الذي قتلتُ أباك فان شئتَ القصاص فاقتص مني وان أحببت العفو فاعفُ عني، وان كان حداً كما في القذف فإن بلغ المقذوف مثلاً وجب التمكين وان لم يبلغه فهل يجب إعلامه به أو لا؟

وجهان، مِن كونه حقَ آدمي فلا يسقط إلا بإسقاطه، ومن كون الإعلام تجديداً للأذي وتنبيهاً علي ما يوجب البغضاء، ومثل هذا يجري في الغيبة أيضاً((2)).

وخير للعبد أن يستعين بالخالق القادر المطلق علي التخلص من أصحاب الحقوق ولذلك ورد في دعاء الإمام السجاد (سلام الله عليه): (اللهمّ وأيما عبد من عبيدك أدركه مني دركٌ أو مسه من ناحيتي أذي أو لحقه بي أو بسببي ظلمٌ ففتُّه بحقه أو سبقتُه بمظلمتِهِ،

1- -- نقل ذلك في رياض السالكين ج3 ص234.
2- -- يظهر من المحقق الطوسي وتلميذه العلامة طاب ثراهما عدم وجوب الإعلام.

فَصَلِ علي محمد وآله وأرضه عني من وُجدك، وأوفه حقه من عندك، ثم قني ما يوجب له حكمك، وخلِّصـني ممّا يحكم به عدلُك فإنَّ قوتي لا تستقل بنقمتك، وان طاقتي لا تنهض بسخطك، فإنك أن تكافني بالحق تهلكني، وإلا تغمدني برحمتك توبقني)((1)).

إن حقوق المؤمن عبارة عن تلك التي توجبها أخوة الإيمان وهو الذي أشار إليه الإمام أبو عبد الله الصادق(عليه السـلام): ما عُبِدَ الله بشـيءٍ أفضل من أداء حق المؤمن((2))، وقد عَقَدَ في الكافي ثقة الإسـلام الكليني (رضوان اله عليه) باباً عنونه باب حق المؤمن علي أخيه المؤمن وأداء حقه، وإليك يا أخي بعض تلك الروايات:

فمنها ما رواه بسنده عن المعلي بن خنيس عن الصادق(عليه السلام) قال: قلتُ له ما حق المسلم علي المسلم؟

قال: له سبع حقوق واجبات ما منهنّ حقٌ إلا وهو عليه واجب، إن ضَيَّعَ شيئاً منها خرج من ولاية الله وطاعته ولم يكن لله فيه نصيب.

قلتُ له: جعلت فداك وما هي؟

قال يا معلي إنّي عليك شفيق، أخاف أن تُضَيِّع ولا تَحفظ وتَعْلَم ولا تعمل.

قال قلتُ: لا قوة إلا بالله.

1- -- من أدعية الصحيفة السجادية الدعاء التاسع والثلاثين.
2- -- أصول الكافي ج2 باب حق المؤمن علي أخيه وأداء حقه ص170 ح4.

قال: أيسرُ حقٍ منها أن تُحبَ له ما تُحبُ لِنفسَك وتكره له ما تكره لنفسك، والحق الثاني أن تجتنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره، والحق الثالث أن تُعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك، والحق الرابع أن تكون عينه ودليله ومرآته، والحق الخامس أن لا تشبع ويجوع ولا تروي ويظمأ ولا تلبس ويعري، والحق السادس أن

يكون لك خادم وليس لأخيك خادم فواجب عليك أن تبعث خادمك فيغسل ثيابه ويصنع طعامه ويمهد فراشه، والحق السابع أن تَبر قَسَمَهُ وتُجيب دعوتَهُ وتَعود مَريضَهُ وتَشهد جنازتَهُ وإذا عَلِمتَ أن له حاجة تبادره إلي قضائها ولا تُلجئه إلي أن يسألكها ولكن تبادره مبادرةً، فإذا فعلتَ ذلك وَصَلْتَ وِلايتَكَ بِولايتهِ ووِلايتَهُ بِولايَتِكَ((1)).

وعن أبي عبد الله(عليه السلام): مِن حق المؤمن علي أخيه أن يشبع جوعته ويواري عورته ويفرج عنه كربته ويقضي دينه وإذا مات خلفه في أهله وولده((2)).

وعن الإمام الصادق (سلام الله عليه): من حق المؤمن علي المؤمن المودة له في صدره، والمواساة له في ماله، والخلف له في أهله، والنصرة علي من ظلمه وان كان نافلةً في المسلمين وكان غائباً

1- -- المصدر السابق ص 169 ح 2.
2- -- المصدر السابق ح 1.

اخـذ له من نصـيبه، وإذا مات الزيارة إلي قبره، وان لا يظلمه، وان لا يغشه، وان لا يخونه، وان لا يخـذله، وان لا يكـذبه، وان لا يقول له أفّ، وإذا قـال له أف فليس بينهمـا ولايـة، وإذا قـال له أنت عـدوي فقـد كفر احـدهما، وإذا اتهمه إنماث الإيمان من قلبه كما ينماث الملـح في الماء((1)).

وروي محمد بن عجلان قال كنت عند أبي عبد الله الصادق (سـلام الله عليه) فدخل رجل فسلَّم، فسأله كيف من خلفت من أخوانك، قال: فأحسن الثناء وزكي وأطهر، فقال: فكيف عيادة أغنيائهم علي فقرائهم، فقال: قليلـة، قال: وكيف مشاهـدة أغنيائهم لفقرائهم، قال: قليلـة، قال: فكيف صلة أغنيائهم لفقرائهم في ذات أيديهم، فقال انك لَتَذكر أخلاقاً ما هي في مَن عندنا، قال: فكيف تزعم هؤلاء أنهم شيعة((2)).

وروي الشـهيد الثاني (رضوان الله تعالي عليه) في كتابه كشف الريبة في أحكام الغيبة بسـند له عن أمير المؤمنين(عليه السـلام) انه قال: قال رسول الله(صـلي الله عليه و آله) للمؤمن علي أخيه ثلاثون حقاً لا براءة له منها إلا بالأداء أو بالعفو، يغفر زلته، ويرحم غربته، ويستر عورته، ويُقيل عثرته، ويقبل معذرته، ويرد غيبته، ويديم نصيحته، ويحفظ خِلته، ويرعي ذمته،

1- -- المصدر السابق ص 171 ح 7.

2- -- المصدر السابق ص 173 ح 10.

ويعود مرضته، ويشهد ميته، ويجيب دعوته، ويقبل هديته، ويكافئ صلته، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته، ويحفظ حليلته، ويقضي حاجته، ويشفع مسألته، ويسمت عطسته، ويرشد ضالته، ويرد سلامه، ويطيب كلامه، ويبر انعامه، ويصدق أقسامه، ويواليه ولا يعاديه، وينصره ظالماً ومظلوماً فأما نصرته ظالماً فيرده عن ظلمه وأما نصرته مظلوماً فيعينه علي اخذ حقه، ولا يسلمه، ولا يخذله، ويحب له من الخير ما يحب لنفسه ويكره له من الشر ما يكره لنفسه، ثم قال علي(عليه السلام) سمعتُ رسول الله(صلي الله عليه و آله) يقول إن أحدكم لَيدع مِن حقوق أخيه شيئاً فيُطالبه به يوم القيامة فيُقضي له عليه((1)).

وعن أبي عبد الله الصادق (سلام الله عليه) حدثني أبي عن آبائه عن علي (عليه السلام) عن النبي (صلي الله عليه و آله) انه قال: أدني الكفر أن يسمع الرجل عن أخيه الكلمة فيحفظها عليه يريد أن يفضحه بها أولئك لا خلاق لهم((2)).

وهذه المعاني بارزة في دعاءٍ الإمام زين العابدين (سلام الله عليه) حيث قال: اللهم إني اعتذر إليك من مظلوم ظلم بحضرتي فلم أنصره، ومن معروف أُسدي إليّ فلم اشكره، ومن مُسيء اعتذر إلي فلم اعذره، ومن ذي فاقة سألني فلم أوثره، ومن حق ذي حق لزمني

1- -- كشف الريبة في أحكام الغيبة ص115.
2- -- كشف الريبة في أحكام الغيبة ص130.

لمؤمن فلم أوقره، ومن عيب مؤمن ظهر لي فلم استره، ومن كل أثمٍ عرض لي فلم أحجره((1)).

الشرط الثالث:

أن لا ـ ينسي الإنسان ذنوبه ويتـذكرها دائماً ليكون علي خوف ووجل من مؤاخـذة الله له إن لم تقبل توبته لقصور أو تقصـير في أداء معناها فيظل الندم يعصر قلبه فيحثه علي الابتعاد عن مخالب الشيطان وحبائل نفسه الإمارة بالسوء، وقد روي الكليني (رضوان الله عليه) عن بعض أصحاب الإمام الصادق(عليه السلام) قال: سمعته يقول إن الرجل ليذنب الذنب فيدخله الله به الجنة.

قلت: يدخله الله بالذنب الجنة؟

قال: نعم، انه يذنب فلا يزال خائفاً ماقتاً لنفسه، فيرحمه الله فيدخله الجنة((2)).

ويستفاد من بعض الروايات إن الله سبحانه لا يترك عبده المؤمن ليغفل عن ذنوبه ومعاصيه ليستمر في النـدم علي ما صدر منه والرجاء للمغفرة منه، ففي مقام التوبة ينبغي للعبد أن يذكر ذنوبه يقرّ بها ويعترف بتقصيره تجاه

ص: 45

1- -- الدعاء الثالث والثلاثون من الصحيفة السجادية.

2- »1«-- أصول الكافي ج 2 باب الاعتراف بالذنوب والندم عليها ص 426 ح 3.

سيده، وقد روي أن الاعتراف بالذنوب مع الندم مقارناً لطلب العفو والتجاوز يجلب المغفرة من الله ويستجلب رحمته تعالي، فقد روي عن الإمام الباقر (سلام الله عليه) قال: والله لا ينجو من الذنب إلا من اقرَّ به((1)).

وكذلك روي عنه(عليه السلام) لا والله ما أراد الله من الناس إلا خصلتين، أن يقروا له بالنعم فيزيدهم وبالذنوب فيغفرها لهم((2)).

وعن الإمام الصادق(عليه السلام) انه قال: إنَّ الله يحب العبد أن يطلب إليه في الجرم العظيم ويبغض العبد أن يَستَخف بالجرم اليسير((3)).

وروي عن الإمام الصادق (سلام الله عليه) والله ما خرج عبد من ذنب بإصرار وما خرج من ذنب إلا بإقرار((4)).

والذي توغل في المعاصي واستولت ظلمة ذنوبه علي نور عقله واسودَّ باطنه وأبعد في اقتحامه للموبقات يغفل عما صدر منه من الموبقات فلا يعرف أولئك الذين أكل أموالهم أو هتك أعراضهم أو أباح دماءهم أو تورط في قتلهم وينسي المؤمنين الذين اغتابهم أو ارتكب الفضائح تجاههم أو المعاصي التي توغّل فيها بينه وبين ربه، فربما تجده موفور النعمة واسع الحال يرعي في نعم الله سبحانه ليلاً ونهاراً غافلاً عن انه استدراج، وإلي مثل

1-- المصدر السابق ح 1.
2-- المصدر السابق ح 2.
3-- المصدر السابق ص 427 ح 6.
4-- المصدر السابق ص 426 - 427 ح 4.

هؤلاء يشير قوله سبحانه: «فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّي إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ»((1))، وإلي مثل هؤلاء يشير قوله سبحانه أيضاً: «سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ»((2)).

وهـذا لا يعني انه قد أغلق في وجهه باب التوبة بل يعني ذلك انه لسوء اختياره وقبح سـريرته قد صـرف وجهه عن رحمة الله تعالي وأسـلس نفسه لقيادة الشـيطان واسـتولت عليه شقوته التي اختارها بمحض إرادته إلا أن الله سبحانه لا يقطع رحمته عنه فيوقفه بين حين وآخر علي ما يمكن أن يهتدي به ليكون له تعالي الحجة البالغة عليه ولا يكون لعبده حجة عليه.

الشرط الرابع:

أن يبتعد عن تلك الظروف التي كان يعيشـها أيام المعصـية وكانت تشـجعه وتسهل له سبل المعاصي وينفصل عن أولئك الناس الذين كان معهم أيام المعاصي لئلا يذكروه بتلك اللذة الخيالية التي كان يستأنس بها حين ارتكاب المعاصي ولعل إلي هذا المعني يشير قوله

1- -- سورة الأنعام/44.

2- -- سورة الأنعام/44.

تعالي: «رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَ-ذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا»((1))، نعم أن كانت تلك المجموعة تابت ورجعت إلي أحضان الله تعالي فالبقاء حينئذٍ معهم ربما يساعده علي الاستمرار في التوبة والاستغفار فذلك أمر آخر.

الشرط الخامس:

أن يتدارك ما فاته من العبادات أيام الصبوة والمعاصي من صلاة وصوم وغيرهما من العبادات، بل يسعي في تكرار ما قد أداه من تلك العبادات زيادة في الاحتياط لدينه إذ لا- يعلم قبول تلك الأعمال، بل العبد العادي غير المعصوم يحتمل أن لا تكون أعماله صحيحة فيعيدها، بل قد فعل هذا المعني غير واحد من علمائنا الأجلاء، فروي أن العلامة الحلي (أعلي الله درجاته في عليين) أعاد صلواته كلها ثلاث مرات ثم أوصي ولده فخر المحققين (رضوان الله عليه) بإعادة صلواته وصومه زيادةً في الاحتياط، وهكذا كانت وصية سيدنا الأعظم السيد أبو القاسم الخوئي إلي نجله العلامة السيد محمد تقي الخوئي (رضوان الله تعالي عليهما)، بل حتي ولو علم أن صلاته مثلاً كانت صحيحة مع ذلك يكفي في إعادتها جلباً للاحتياط

1- -- سورة النساء/75.

أنها لم تكن كما ينبغي مع التوجه والالتفات وحضور القلب بالنحو المطلوب من العبد ومعلوم انه قد ورد انه لا يقبل من الصلاة إلا ما كان مع الإخلاص والتوجه إلي الله سبحانه.

ثم من هذه المعاصي مما له ارتباط بالعباد قد لا تكون متعلقة بالأموال بل تكون متعلقة بالأنفس والأعراض كأن يكون قد اغتاب أحداً أو طعنه بتهمة أو قَلَّلَ من قدره في مورد من الموارد فلا عذر له ولا يستحق الغفران من الله سبحانه ما لم يستوهب ذلك ممن أساء إليه إذا كان ذلك ممكناً ولو اقتضي ذلك الخضوع والاعتراف بالمعصية أمام ذلك الذي ظُلِمَ بهذه الأعمال فإن الخضوع لحظة أمام بعض عباد الله أهون وأسهل من خزي يوم القيامة فانه ربما يعده بعض الجهال عاراً ولكن قد قال سيد الشهداء (سلام الله عليه):

الموت أولي من ركوب العار

والعار أولي من دخول النار

ولا عار ولا خزي فوق خزي دخول النار، قال الله سبحانه حكاية عن دعاء المؤمنين المخلصين: «رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ»((1)).

1- -- سورة آل عمران/192.

الشرط السادس:

أن يطلب من الله العفو والغفران مع الاعتراف بالتقصير ويستمر في ذلك.

واعلم يـا أخي إن الاسـتغفار عبـادة ولا يخلو العبـد العادي من وجوبه لعـدم خلوه من المعاصـي والمزالق وهو وإن وجب الرجاء من الله سبحانه إلا أنه ينبغي أن نعلم إنَّ ما فات العبـد من عمره أثناء المعصـية لا يمكنه تـداركه فان ما يفعله من الاسـتغفار حال التوبـة إنما هو في وقت من العمر غير الذي ارتكب فيه المعاصي، فلو نظر العبد وتأمل في خسارة ذلك الوقت الذي قضاه في البعد والابتعاد من ساحة رحمته تعالي لكفي في أن يبكي طول حياته ولو بكي لما أمكن تدارك ذلك أيضاً.

نعم قد ورد أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له وهو أولاً فيمن قُبِلت توبتُه واسـتجيب اسـتغفارُه وأني لك العلم بذلك، وثانياً فإن أقصي ما يتحقق للعبد بالتوبة هو محو تلك المعصـية وإحباط تلك الجريمة من صـحيفة أعماله ولكن الوقت الذي صـرفه من عمره في المعصـية لم يستفد فيه شيئاً من الخير فقد خسر ذلك الوقت حتماً فلا تُعَوَّض تلك الخسارة.

ثم لا يتم الاستغفار إلا بعد إحراز ست مراحل وقد بينها سيد الأوصياء (سلام الله عليه) حيث قال لقائل بحضرته أستغفر الله

(ثكلتك أمك أتدري ما الإستغفار؟ الاستغفار درجة العلّيين وهو اسم واقع علي ستة معانٍ: أولها الندم علي ما مضي، والثاني العزم علي ترك العود إليه أبداً، والثالث أن تؤدي إلي المخلوقين حقوقهم حتي تَلقي الله أملس ليس عليك تبعةٌ، الرابع أن تعمِد إلي كل فريضة عليك ضَيَّعتها فتؤديها، والخامس أن تَعمد إلي اللحم الذي نبت علي السحت فتُذيبه بالأحزان حتي تُلصِق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس أن تُذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول استغفر الله((1)).

وأعلم يا أخي أنّا قدّمنا بعض الكلام حول الثلاثة المعاني الأولي الندم علي ما مضي والعزم علي ترك العود وأداء الحقوق إلي أهلها، وينبغي أن نشير إلي بعض ما يرمي إليه كلامه (سلام الله عليه) في الثلاثة الأخيرة.

قوله(عليه السلام): (أن تعمد إلي كل فريضة عليك ضيعتها فتؤديها) الظاهر انه لا يقصد بذلك مجرد عدم الإتيان بالفريضة فإن التضييع كما يتحقق بعدم الإتيان بها أو عدم صحتها من حيث الأجزاء والشرائط، كذلك يصدق إذا خلت الفريضة من روحها وهو الإخلاص والتوجه بأن لا تكون الصلاة تحقق معني المعراج ولم تحقق القربة المطلوبة للعبد من

1- -- نهج البلاغة/ الحكم والمواعظ/ الفقرة 417.

وراء الفريضة ولا تعمل تلك الفريضة عملها لو كانت بالنحو المطلوب بان لا تكون ناهية عن الفحشاء والمنكر والبغي فهي ضائعة.

وأما قوله(عليه السلام): (أن تعمد إلي اللحم الذي نَبَتَ علي السُحت) فيمكن أن يكون إشارة إلي معنيين:

أحدهما: وهو الظاهر في النظر البدوي وهو أن يكون الإنسان قد أكلَ حراماً فنبت لحمه من ذلك الأكل المحرم.

والمعني الثاني: إن نبات اللحم كما يفتقر إلي الغذاء كالمأكول والمشروب كذلك يفتقر إلي الانتعاش الروحي النفسي، فالطعام مهما كان صالحاً لتغذية البدن فما لم يقترن معه النشاط الروحي لم ينفع ذلك الطعام وقد ثبت بالتجربة وببيان الأطباء أن أكل الطعام في حالة العذاب الروحي والحزن أو الخوف لا ينفع للبدن وذُكِرَت في هذا المعني قصصٌ نجدها في مظانها، فإذا كان الإنسان مشتغلاً بالمعاصي ومندفعاً إليها كان انتعاش روحه نابعاً من معصية الله تعالي وهو يكون مساعداً بل المؤثر القوي في إفادة ذلك الطعام الذي هو في نفسه حلال نباتُ اللحم، فالسحت إذن هو عبارة عن ذلك النشاط الروحي الذي كان هو الأساس في تأثير الغذاء في إنبات اللحم، وبهذا المعني الثاني يصح ضرورة إحراز المعاني كلها في حق كل عاصٍ وإن لم يأكل ما حَرَّمَ اللهُ.

وأما قوله(عليه السلام): (أن تُذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقتَه حلاوة المعصية) فيمكن أن يُفسَّر الم الطاعة بأمور:

أولاً: بما يبدو في النظر السطحي إن الواجبات تكاليف شرعية وفيها كلفة فيلازمه ألمُ التعب وألمُ مَنْع النفس وحَبْسها عن المباحات التي يجب تركها أثناء تلك الواجبات مثل ما يحرم علي المصلي أثناء الصلاة وما يحرم عليه أثناء الصوم وما يمنع عنه في أعمال الحج والعمرة، فيكون الألم من جهتين التعب والمشقة وألم الابتعاد من تلك المباحات التي تتوق إليها النفس البشرية بمقتضي الطبع الناسوتي.

وثانياً: أن يراد بالألم ألم الخزي والندامة التي يحسها كل ذي إحساس سليم حين وقوفه أمام سيده الذي قد تمرد عليه وخرج عن طاعته وتجاسر علي جنابه ومعلوم أن هذا الألم روحي وهو أقوي بكثير من الألم الجسدي الذي أشرنا إليه في المعني الأول، ولذلك نقل عن بعض الحكماء انه قال إنَّ ما يحس به الإنسان من مجالسة

شخص ما ثقيل أشد مما يحسه من رفع الجسم الثقيل علي الروح والثاني ثقيل علي الجسد، ولعل جل العقلاء يتحملون الآلام الجسدية والأتعاب البدنية برحابة صدر تخلصاً من الألم الروحي والنفسي.

وثالثاً: إن الصلاة وغيرها من العبادات بالقياس إلي المطيعين والمخلصين تسبب لذةً روحيةً عظيمةً وتسبب لهم راحةً ليس وراءها راحة، ولذلك روي أن رسول الله(صلي الله عليه و آله) ربما يكون مع أصحابه

يتحدث فيحلّ وقت الصلاة فيقول لمؤذنه بلال أرحنا يا بلال فكأن راحته(صلي الله عليه و آله) في الصلاة لأن قرة عينه فيها، وأما بالقياس إلي العصاة والناس العاديين أمثالنا فالصلاة وغيرها من العبادات لشدة ما توغلنا في المعاصي وابتعدنا عن جناب قدسه تعالي نتيجة ما احتطبنا علي ظهورنا من الخطايا فانطبعت نفوسنا علي خلاف ما ينبغي أن تكون عليه أرواحنا وحياتنا، فاعوجَّ ما كان مستقيماً، وتوغلت الأوساخ فيما كان نظيفاً، وتشتت ما كان ملموماً واظلم ما كان مستنيراً، فالصلاة تكون قلعاً لهذه القاذورات وتعديلاً لذلك الاعوجاج وتبييضاً لذلك السواد فهي بمنزلة الدواء المُزيل للمرض والمواد الكيماوية التي تعمل عمل التيزاب في قلع تلك المفاسد التي أوغلت نفوسنا فيها فنحس الألم من فعل تلك العبادة.

ثم الاستغفار له أوقات أهمها اثنان:

احدهما أن يستغفر الإنسان عقيب كل معصية أو حينما يلتفت إلي نفسه وصنيعه، فقد ورد ما معناه إنَّ من كان في صحيفة أعماله الاستغفار مع كل معصية غفر الله له.

الثاني السحر حيث مدح الله سبحانه المستغفرين بالأسحار، ولعل المقصود بذلك صلاة الوتر عقيب صلاة التهجد.

وينبغي أن نعلم أن الاستغفار نوع دعاء فعلي الإنسان المستغفر أن يتحري الأوقات المفضلة للدعاء كما لا ينبغي أن يغفل احد عن أن

معني الاستغفار لا يتحقق إلا بأن يلتفت المستغفر إلي نفسه كمذنب مفتقر إلي عطف ربه ويلتفت إلي الذنب أو الذنوب التي احتطبها علي ظهره ولو بنحو الإجمـال ويكون متوجهاً بإخلاص إلي مولاه الـذي أذنب تجاهه وتجاسـر علي جنابه وتمرَّد عليه مع الاعتقاد الجازم بعطفه ورحمته ووعده بالغفران وأوامره المُلِحّة بطلب المغفرة، وبدون هذه المعاني التي أشرنا إليها لا يتحقق معني الاستغفار.

التوبة واجبة عقلاً وشرعاً

قد ثبت أن العقل السليم يُدْرك لزوم الطاعة للمولي وضرورة الخضوع له ويعلم قُبحَ التمرّد عليه والخروج عن رسم العبودية ولا سيما إذا كان المولي هو المانح له الوجود وهو الذي سخا بالبقاء له وجاد عليه بالقدرة علي التمتع بأنواع النعم التي تفضل بها عليه.

والعود إلي أحضـان رحمته وعطفه مِن أبرز الواجبات العقليـة خصوصاً إذا علم بأنه قـد عهـد إليه بأنه إن تاب وعاد إليه وطَرَقَ باب عطفه فانه سوف يغفر له ويتجـاوز عن سـيئاته ويشـمله بعطفه فالاسـتمرار في التمرد والسـعي في الابتعاد والمداومـة علي الخروج عن طاعته من أقبح القبائـح وأبشع الفضائـح، هـذا وقـد حذر عبده عن بطشه وشدة غضـبه وانه إذا أنتقم فلا يقر له قرار ولا ملجأ له ولا مهرب له منه إلا إليه وقد منحه المدة ما دام يعقل وينادي بلسان عقله ويدعوه بصوت ضميره مع وضع الدلائل ونصب العلامات

ص: 57

وبث المنبهات أمامه أينما تَوَجَّهَ، فالاستمرار في الغَيِّ ينبغي أن يخجل منه الإنسان.

هذا وقد ورد في الشرع ما يَحثّ العبد علي التوبة ويلزمه بها قال الله سبحانه: «وَتُوبُوا إِلَي اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»((1))، وقال تعالي: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَي اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَي رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ»((2))، وقال تعالي: «وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَي أَجَلٍ مُّسَمًّي وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ»((3))، وقال(عزوجل): «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً»((4)).

وقال سبحانه: «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً»((5)).

1-- سورة النور/31.

2-- سورة التحريم/8.

3-- سورة هود/3.

4-- سورة نوح/10.

5-- سورة الفرقان/70.

وقال(عزوجل): «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»((1)).

وقال تعالي: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَي مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ»((2))، وقال سبحانه وتعالي: «إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ»((3))، وقال تعالي: «وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً»((4))، وقال سبحانه: «وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَي نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن

1- -- سورة غافر/ 7-- 9.

2- -- سورة آل عمران/135-- 136.

3- -- سورة البروج/10.

4- -- سورة النصر/3.

بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»((1))، وقال(عزوجل): «فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ»((2))، وقال(عزوجل): «فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»((3))، وقال سبحانه: «فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ»((4)).

وقد ورد في الروايات ما يدل علي لزوم التوبة وحثّ المعصومين عليها، فمنها ما رواه الراوندي في كتاب الدعوات قال النبي(صلي الله عليه و آله): إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر، توبوا إلي الله ربكم قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الزاكية قبل أن تشتغلوا، وصِلوا الذي بينكم وبينه بكثرة ذكركم إياه((5)).

وروي في تحف العقول وكذلك في أمالي الصدوق عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: لا شفيع انجح من التوبة((6)).

وروي الشيخ الصدوق في الخصال عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام) قال: قال النبي(صلي الله عليه و آله): يلزم الحق لأمتي في أربع،

1- -- سورة الأنعام/54.

2- -- سورة التوبة/3.

3- -- سورة التوبة/ 5.

4- -- سورة التوبة/11.

5- -- البحار ج6 باب التوبة وأنواعها وشرائطها ص19 ح 5.

6- -- المصدر السابق ح 6.

يحبون التائب، ويرحمون الضعيف، ويعينون المحسن، ويستغفرون للمذنب (الذنب)((1)).

وكـذلك روي في الخصـال عن الصـادق (سـلام الله عليه): مَن أوتي أربعاً لم يُحرم أربعاً، مَن أُعطي الـدعاء لم يُحرم الإجابـة، ومَن أُعطي الاستغفار لم يُحرم التوبة ومن أُعطي الشكر لم يحرم الزيادة، ومَن أُعطي الصبر لم يُحرم الأجر((2)).

وروي في الخصال بسنده عن أبي المقداد عن أبي عبد الله الصادق عن أبيه (عليهما السلام) قال: قال رسول الله (صلي الله عليه و آله): أربع من كُنَّ فيه كان في نور الله الأعظم، مَن كانت عِصـمةُ أمره شهادة أن لا إله إلا الله واني رسول الله، ومَن إذا أصابته مصيبة قال إنا لله وإنا إليه راجعون، ومن إذا أصاب خيراً قال الحمد لله رب العالمين، ومن إذا أصاب خطيئةً قال استغفر الله وأتوب إليه((3)).

وروي في عيون أخبار الرضا(عليه السـلام) عنه(عليه السلام) عن آبائه(عليهم السلام) قال: قال رسول الله (صلي الله عليه و آله): التائب من الذنب كمن لا ذنب له((4)).

1- -- المصدر السابق ص 20 ح 10.
2- -- المصدر السابق ح 12.
3- -- المصدر السابق ح 13.
4- -- المصدر السابق ح 16.

وروي الشيخ الطوسي (رضوان الله عليه) في أماليه عن المفيد (رضوان الله عليه) بسنده عن الشعبي قال سمعت علي بن أبي طالب (سلام الله عليه) يقول: العَجب مِمَّن يقنط ومعه الممحاة، فقيل له: وما الممحاة، قال: الاستغفار((1)).

وروي الشيخ في أماليه أيضاً بإسناده عن الرضا (سلام الله عليه) عن آبائه(عليهم السلام) قال: قال أمير المؤمنين(عليه السلام): تَعَطَّروا بالاستغفار لا تفضحكم روائحُ الذنوب((2)).

وروي ابن فهد في عدة الداعي عن العالم(عليه السلام) انه قال: والله ما أُعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بِحُسن ظنّه بالله عز وجل ورجائه له وحسن خلقه والكف عن اغتياب المؤمنين، والله تعالي لا يعذب عَبداً بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظَنِّهِ وتقصيره في رجائه لله(عزوجل) وسوء خلقه واغتيابه المؤمنين((3)).

وروي الشيخ الصدوق(رضوان الله عليه) في كتاب ثواب الأعمال بسنده عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق (سلام الله عليه) قال: أوصي الله عز وجل إلي داوود النبي (علي نبينا وآله

ص: 62

1- -- المصدر السابق ص21-- 22 ح 17.

2- -- المصدر السابق ص22 ح 18.

3- -- المصدر السابق ص 28 ح 29.

وعليه السلام) يا داوود إنَّ عبدي المؤمن إذا أذنب ذنباً ثم رجع وتاب مِن ذلك الذنب واستحيي مني عند ذكره غفرتُ له وأنسيتُه الحفظة وأبدلتُه الحسنة ولا أبالي وأنا أرحم الراحمين((1)).

وروي الصدوق في ثواب الأعمال أيضاً بسنده عن معاوية بن وهب قال سمعت أبا عبد الله الصادق(عليه السلام) يقول: إذا تاب العبد المؤمن توبة نصوحاً أحبه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة، فقلت: وكيف يستر عليه، قال: ينسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب ويوحي إلي جوارحه اكتمي عليه ذنوبه ويوحي إلي بقاع الأرض اكتمي ما كان يعمل عليك من الذنوب فيلقي الله حين يلقاه وليس شيءٌ يشهد عليه بشيءٍ من الذنوب((2)).

وروي في ثواب الأعمال أيضاً بسنده عن المسعودي قال: قال أمير المؤمنين(عليه السلام) من تابَ تابَ الله عليه وأُمِرت جوارحه أن تستر عليه وبقاع الأرض أن تكتم عليه وأُنسيَت الحفظة ما كانت تكتبه عليه((3)).

1- -- المصدر السابق ح 30.
2- -- المصدر السابق ح 31.
3- -- المصدر السابق ح 32.

وروي الراوندي في الخرايج إن أبا جعفر الباقر(عليه السـلام) كان في الحج وكان معه ابنه جعفر(عليه السـلام) فأتاه رجل فسلم عليه وجلس بين يديه ثم قال إنّي أُريد أن أسألك.

قال: سَل ابني جعفراً.

قال: فتحوَّل الرجل فجلس إليه ثم قال: أسألك؟

قال: سَل عما بدا لك.

قال: أسألك عن رجل أذنبَ ذَنباً عَظيماً؟

قال: أفطر يوماً من شهر رمضان متعمداً؟

قال: أعظم من ذلك.

قال: زني في شهر رمضان؟

قال: أعظم من ذلك.

قال: قتل النفس؟

قال: أعظم من ذلك.

قال(عليه السـلام) إن كان (المقتول) من شـيعة علي مشي إلي بيت الله الحرام وحلف أن لا يعود، وان لـم يكن (أي المقتول) من شيعته فلا بأس.

ص: 64

فقال له الرجل: رحمكم الله يا ولد فاطمة – ثلاثاً – هكذا سمعتُه مِن رسول الله (صلي الله عليه و آله)، ثم إنَّ الرجل ذهب فالتفت أبو جعفر فقال: عرفت الرجل؟ قال: لا، قال: ذلك الخضر، إنما أردت أن أعرفكه((1)).

أقول: المقصود من الشيعي كل مؤمن مخلص ملتزم بدين الله ومتزين بتقوي الله ومتعفف عما حرم الله، هكذا فُسِّرَ الشيعي في روايات الأئمة (سلام الله عليهم).

هذه نخبة من روايات كثيرة وردت عن المعصومين (سلام الله عليهم) تُبَيِّن فضل التوبة وما يترتب عليها من غفران الذنوب والتخلص منها، ومعلوم إن التخلص من الذنوب مطلوب بحكم العقل، فما ورد في هذه الروايات وغيرها يعتبر دليلاً ومرشداً إلي ما يُخَلِّصُ الإنسان من الذنوب، مُضافاً إلي انه يكفي في الوجوب شرعاً تلك الآيات التي ذكرناها، علي أن الحق – كما أشرنا إليه فيما سبق – أن التوبة واجبة بحكم العقلاء وجميع ما ورد في الشرع يُعتبر إرشاداً إلي ذلك الحكم العقلائي الواضح.

ص: 65

1- -- المصدر السابق ص 30 --31 ح 37.

التوبة واجب فوري

اتفقت كلمة علمائنا الأبرار وفقهائنا الأجلاء علي أن وجوب التوبة فوري، بل أفاد الشيخ البهائي (رضوان الله تعالي عليه) أن الذنوب بمنزلة السموم المضرة بالبدن فكما يجب علي شارب السم أن يبادر إلي الاستفراغ ليتلافي بدنه المشرف علي الهلاك كذلك يجب علي صاحب الذنوب المبادرة إلي تركها والتوبة منها تلافياً لذنبه المؤدي إلي هلاك الروح واضمحلالها، ومَن أهمل المبادرة إلي التوبة وسَوَّفها من وقت إلي آخر فهو بين خطرين عظيمين إن يسلم من أحدهما فربما لا يسلم من الآخر:

الأول: أن يعاجله الموت المحتوم فلا ينتبه من غفلته ولا يستيقظ من غفوته إلا وقد حضره الموت وفاته التدارك وأغلقت في وجهه أبواب التلافي كما يشير إليه قوله سبحانه: «وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا

ص: 67

يَشْتَهُونَ»((1)), فيحاول أن يتوب فلا يتمكن فربما خنقته الحشرجة أو تطلّب المهلة فلا يجدها، قال الله سبحانه: «من قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَ وْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَي أَجَ لٍ قَرِيبٍ»((2)), ونقل البهائي(رضوان الله عليه) عن بعض المفسرين في تفسير هذه الآية أن المحتضر يقول عند إحساسه بالموت وقد كُشِفَ عنه الغطاء لملك الموت أخرني يوماً اعتذر فيه إلي ربي وأتوب إليه وأتزود صالحاً، فيقول فنيت الأيام، فيقول أخرني ساعة، فيقول فنيت الساعات، فيغلق عنه باب التوبة ويغرغر بروحه إلي النار ويتجرع غصة اليأس وحسرة الندامة علي تضييع العمر، وربما أدَّت به الحال إلي اضطراب في أصل إيمانه – نستجير بالله من صدمات هذه الأهوال.

الثاني: أن تراكم ظلمات الذنوب والمعاصي علي قلبه فتصبح حالة الذنوب ريناً ثابتاً ويتطبّع علي المعاصي فيفقد صلاحية المحو، فكل معصية يرتكبها الإنسان تسبب له ظلمة في قلبه وغشاوة سوداء علي نفسه، وإذا تراكم الرين فيطبع علي قلبه من خبثه وإذا تراكمت عليه الظلمات بعضها فوق بعض وطال في غيّه وغاص في بحارها

ص: 68

1- -- سورة سبا/ 54.

2- -- سورة المنافقون/10.

ففسدت نفسه فصارت لا تقبل الرجوع إلي الله سبحانه ويعبر عن هذا القلب بالقلب المنكوس والقلب الأسود.

والـذي يظهر بالتأمل أن المعاصـي تسـبب اعوجاج القلب علي غرار ما إذا جعلت عودة خضـراء في قالب اعوج وييبست فيه فتعديلها يكون صعباً جداً، كذلك النفس إذا توغلت في المعاصي وطال مكثها فيها يكون ذلك سبباً اختيارياً للعبد في أن تحس نفسه بالصعوبة الشديدة في تقبـل الاعتـدال ولعله إلي ذلـك يشـير قوله تعالي: «خَتَمَ اللّهُ عَلَي قُلُوبِهمْ وَعَلَي سَمْعِهِمْ وَعَلَي أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ»((1)), فقد روي الشـيخ الكليني (أعلي الله مقامه) في الكافي عن الإمام الصادق (سلام الله عليه) قال: كان أبي يقول ما من شيءٍ أفسد للقلب من الخطيئة إن القلب ليواقع الخطيئة فلا تزال به حتي تغلب عليه فيصير أعلاه أسلفه.

وروي عن الباقر(عليه السـلام): ما مِن عبـدٍ إلا وفي قلبه نقطـة بيضاء فإذا أذنب خرج من النقطة نقطة سوداء فإن تاب ذهب ذلك السواد وان تمـادي في الـذنوب زاد ذلك السواد حتي يغطي البياض، فإذا غطي البياض لم يرجع صاحبه إلي خير أبـداً وهو قول الله(عزوجل): «كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَي قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»((2)).

ص: 69

1- -- سورة البقرة/7.

2- -- سورة المطففين/14.

معني قوله(عليه السلام): (لم يرجع صاحبه إلي خير أبداً) أنه باختياره أوقع نفسه في هذا المأزق ودفعها إلي دهليز ضَيِّق وضَيَّع علي نفسه فرص التخلص وقَطَّعَ علي نفسه طريق الرجعة مثل من يُلقي نفسه من شاهق فيعجز عن منع نفسه من السقوط نرجو الله سبحانه العفو والغفران.

وقد روي إن التسويف في التوبة اغترار([1]).

ويستفاد من عدة آيات مباركة أن التوبة التي تنفع العبد هي التي يعقبها الإصلاح للنفس والعمل، وهذا يعني أن التوبة -- أي بمعني الندم بمفرده -- لا يكفي، ومعلوم أن التوبة مع إصلاح النفس والعمل إنما يحصل عليهما الإنسان بالمبادرة إلي التوبة إذ بدونها مع التسويف فيها قد يفوته المجال لإصلاح نفسه وأعماله فلا يتمكن من التدارك لما فاته.

فعليه حينما نتأمل في الآيات الشريفة الواردة في التوبة وقبولها نجدها علي قسمين:

القسم الأول: ما يدل علي أن التوبة علي أطلاقها مقبولة إذا توفرت أركانها وشرائطها.

والقسم الثاني: ما يدل علي ما أشرنا إليه فإن موضوع العفو والغفران فيه مؤلف من التوبة بالمعني المتقدم مع الإصلاح في

1- -- انظر البحار ج 6 ص 30، وفي مُستدرك الوسائل ج 12 ص 124.

النفس والأعمال، فلابد من حمل القسم الأول علي الثاني وإلا لكان تقييد القبول بالإصلاح في النفس والعمل لغواً.

فمن القسم الأول قوله سبحانه: «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»((1))، وقوله تعالي: «فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ»((2))، وقوله تعالي: «وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ»((3))، وقوله سبحانه: «فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ»((4))، وقوله تعالي: «فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ»((5))، وقوله تعالي: «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ»((6))، وقوله سبحانه: «وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَي الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ»((7))، وقوله جل من قائل: «وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ»((8)) وغيرها.

ومن القسم الثاني قوله سبحانه وتعالي: «فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ»((9))، وقوله(عزوجل): «مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً

1-- سورة التوبة/ 118.

2-- سورة هود/112.

3-- سورة البقرة/279.

4-- سورة التوبة/2.

5-- سورة التوبة/74.

6-- سورة الشوري/25.

7-- سورة الأحزاب/73.

8-- سورة هود/90.

9-- سورة المائدة/139.

بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»((1))، وقوله سبحانه: «إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً»((2))، وقوله سبحانه: «وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَي»((3))، وقوله عز وجل: «إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ»((4))، وقوله(عزوجل): «فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَي أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ»((5))، وقوله(عزوجل): «فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً»((6))، قوله سبحانه: «إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ»((7))، وقوله عز من قائل: «إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ»((8))، وقوله سبحانه: «إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»((9))، وقوله(عزوجل): «وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا

ص: 72

1- -- سورة الأنعام/54.

2- -- سورة مريم/60.

3- -- سورة طه/82.

4- -- سورة الفرقان/70.

5- -- سورة القصص/67.

6- -- سورة النساء/16.

7- -- سورة البقرة/160.

8- -- سورة النساء/146.

9- -- سورة آل عمران/89.

وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»((1))، وقوله(عزوجل): «فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ»((2))، وقوله سبحانه: «فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ»((3))، وقوله تعالي: «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»((4))، وقوله تعالي: «فاغفر للذين تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ»((5)).

بل يستفاد من بعض الآيات انه لا تتحقق التوبة إلا إذا كانت مع المبادرة و إصلاح النفس والعمل فمنها قوله سبحانه: «وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَي اللَّهِ مَتَاباً»((6))، وقوله سبحانه «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَي اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ»((7))،

وقوله(عزوجل): «وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّي إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ»((8))، وقوله سبحانه: «فَلَمَّا رَأَوْا

1- -- سورة الأعراف/153.

2- -- سورة التوبة/5.

3- -- سورة التوبة/11.

4- -- سورة النحل/119.

5- -- سورة غافر/7.

6- -- سورة الفرقان/71.

7- -- سورة النساء/17.

8- -- سورة النساء/18.

بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ»([1])، وقوله تعالي: «فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ»([2]).

وأما الروايات التي ورد فيها أن الله يقبل التوبة ولو كان قبل الموت بقليل فهي إما تحمل - إن صح السند - علي من لم تتح له الفرصة للتوبة ولم يتمكن أو لم ينتبه أو لم تبلغ الهداية إليه إلا ذلك الوقت وحين الحشرجة، وأما تحمل علي ما إذا تهيأت له أسباب أخري لقبول التوبة والمغفرة مثل الشفاعة ممن تقبل شفاعته أو علي ظروف خاصة كأن يغفر الله لأحد كرامة لوالديه أو لأنه وُفِقَ لِعَملٍ بالغ الأهمية كالقتل في سبيل الله أو القتل في سبيل الحسين(عليه السلام).

كما ينبغي أن يعلم أن التسويف في التوبة يلازم طول الأمل كما يلازم حب الدنيا والتمسك بها، وهذه قد اعتبرها الشارع جرائم في نفسها.

وقد نُهينا عن طول الأمل واحترز منه الصالحون من عباد الله فعن علي بن أبي طالب(عليه السلام) في الدعاء المروي عنه (هل أتيتُكَ إلاّ مِن حيث الآمال)([3]).

1- -- سورة غافر/84.

2- -- سورة غافر/85.

3- -- فقرة من دعاء الصباح.

وعن الإمام زين العابدين(عليه السلام) في ضمن دعاء له (اللهمَّ صلِّ علي محمد وآله واكفنا طول الأمل وقَصِّرْهُ عنّا بصدق العمل حتي لا نؤمِّل استتمام ساعة بعد ساعة، ولا استيفاء يوم بعد يوم، ولا اتصال نفس بنفس، ولا لحوق قدم بقدم، وسلِّمنا من غروره وآمنا من شروره) ((1)).

وإنما استكفي(عليه السلام) بارئه من طول الأمل ورَغِب إليه في المبالغة في تقصيره لما يترتب عليه من المضار الدينية والمفاسد الأخروية، وقد جاء من الآثار والأخبار في التخويف والتحذير منه والتنفير عنه عدد كثير من الروايات، وكفي في ذلك قوله سبحانه: «رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ»((2))، فنبَّهَ الله سبحانه علي أن إيثار اللذائذ والتنعم بالنعم الدنيوية مما يؤدي إليه طول الأمل من أخلاق الكافرين لا من أخلاق عباد الله الصالحين، وإليك بعض الآثار المروية في التحذير من طول الأمل:

فمنها ما في الحديث القدسي (يا موسي لا تطول في الدنيا أملك فيقسو لذلك قلبك وقاسي القلب مني بعيد)((3)).

1- -- من ضمن الدعاء الأربعين من الصحيفة السجادية.

2- -- سورة الحجر/2، 3.

3- -- الجواهر السنية في الأحاديث القدسية ص31.

وفي وصـيته(صلي الله عليه و آله) لأبي ذر يا أبا ذر: إياك والتسويف بأملك فانك بيومك ولست بما بعده، فإن يكن لك غد فكن في الغد كما كنت في اليوم، وان لم يكن غد لم تندم علي ما فرطت في اليوم.

يا أبا ذر كم من مستقبل يوماً لم يستكمله ومن منتظر غداً لم يبلغه، يا أبا ذر لو نظرت إلي الأجل ومصيره لأبغضت الأمل وغروره.

يا أبا ذر كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعُد نفسَكَ من أصحاب القبور.

يا أبا ذر إذا أصبحت لا تحدث نفسك بالمساء، و إذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح((1)).

وفي خطبة لأمير المؤمنين(عليه السلام): (إنَّما أخافُ عليكم اثنتين إتباع الهوي وطول الأمل، فأما أتباع الهوي فأنَّهُ يَصدُّ عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة)((2)).

وفي خطبة أخري له(عليه السلام): (واعلموا أن الأمل يسهي العقل وينسي الذكر فاكذبوا الأمل فإنه غرور وصاحبه مغرور((3)).

1-- مكارم الأخلاق: 459.
2-- أصول الكافي ج2 باب إتباع الهوي ص335 ح 3.
3-- نهج البلاغة خطبة 86.

وروي أن أسامة بن زيد اشتري وليدة إلي شهر فبلغ النبي(صلي الله عليه و آله) فقال: (ألا تعجبون من أسامة المشتري إلي شهر، إن أسامة لطويل الأمل)((1)).

وفي أثر انه اجتمع عبدان من عباد الله فقال أحدهما للآخر: ما بلغ من قِصَرِ املك؟ أملي إذا أصبحت أن لا أمسي و إذا أمسيت أن لا أصبح، فقال: أنك لطويل الأمل أما أنا فلا أؤمل أن يدخل لي نفسٌ إذا خرج ولا يخرج لي نفسٌ إذا دخل((2)).

وقد أفاد بعضهم في وجه الملازمة بين طول الأمل ونسيان الآخرة ما يلي:

إن توقع الأمور المحبوبة الدنيوية يوجب دوام ملاحظتها، ودوام ملاحظتها مستلزمٌ لدوام إعراض النفس عن ملاحظة أحوال الآخرة وهو مستعقب لانمحاء تصورها في الذهن وذلك معني النسيان لها وبه يكون الهلاك السرمدي والشقاء الأبدي نعوذ بالله من ذلك((3)).

قال بعضهم وسبب طول الأمل هو حب الدنيا، فإن الإنسان إذا أنس بها وبِلذاتها ثقل عليه مفارقتها وأحب دوامها فلا

1- -- بحار الأنوار ج 70 باب الحرص وطول الأمل ص166 ح27.
2- -- آداب النفس ج2 ص27.
3- -- رياض السالكين ج2 ص147.

يتفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، فان من أحب شيئاً كره الفكر فيما يزيله ويبطله فلا يزال يُمنِّي نفسه البقاء في الدنيا ويُقَدِّر حصول ما يحتاج إليه من أهل ومال وأدوات وأسباب، ويصير فكره مستغرقاً في ذلك فلا يخطر الموت بباله، وإن خطر بخاطره الموت والتوبة والإقبال علي الأعمال الأخروية أخَّرَ ذلك من يوم إلي يوم ومن شهر إلي شهر ومن عام إلي عام... وقال إلي أن اكتهل ويزول سن الشباب، فإذا اكتهل قال إلي أن أصير شيخاً، فإذا شاخ قال إلي أن أتم عمارة هذه الدار وأزوج ولدي فلاناً أو أعود من هذا السفر، وهكذا يُسوّف التوبة كلما فرغ من شغل عرض له شغلٌ بل أشغال حتي يختطفه الموت وهو غافل عنه غير مستعد له مستغرق القلب في أمور الدنيا فتطول في الآخرة حسرته وتكثر ندامته وذلك هو الخسران المبين نعوذ بالله منه.

وإن قيل انه ربما يعلم الشخص بإخبار مَن يُخبِر عن الله عز وجل انه يعيش إلي فترة فكيف يصح منه معني ما تقدم؟

فالجواب إن الإخبار إنما يكون عن عمر لا يتجاوزه الإنسان لكونه أجلاً محتوماً يشير إليه قوله سبحانه: «وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا

جَاءَ أَجَلُهَا»((1))، وأما الأجل الغير المحتوم فقد يتقدم وهو الذي يخاف المؤمن من أن يفاجئه إذا علم أجله المحتوم والله ولي التوفيق.

ص: 79

1- -- سورة المنافقون/11.

التوبة واجبة علي الكل

لا ينبغي الريب أن كلَّ مَن لم يُعطَ العصمة فهو لا يخلو من عثرات أو هفوات وربما ابتلي بارتكاب بعض الذنوب صغيرها أو كبيرها ولا اقل من اللّمم والهم والميل إلي المعصية وان عصمه الله عن التوغل فيها، فكل هذه مُبعِدات عن ساحة رحمة الله سبحانه وموجبات لسخطه تعالي فلا يخلو عبدٌ لم يُتوَّج بالعصمة عن حاجةٍ إلي التوبة والاستغفار، بل نفس الاعتقاد بأنه غير مذنب معصية كبيرة إذ لا اقل من عدم قيامه بحق العبادة المفروضة عليه، فيجب أن يبادر كل أحد إلي الاستغفار، بل مقتضي المعني الذي أشرنا إليه أن يستمر ويداوم علي التوبة والاستغفار أملاً في أن تشمله رحمته تعالي فيغفر له ويسعه عفوه كما وعد عباده المخلصين.

ويضاف إلي ذلك إن كل ممكن لأجل أمكانه متوغلٌ في النقص وهو لازم له باقتضاء ذاته فهو مُفتقرٌ إلي الواجب تعالي جَلَّت عظمته في الخروج من هذا النقص والتدرج إلي الكمال، ومهما ارتفع في

سلوكه إلي مدارج الكمال ومراقي العظمة فهو لا يزال في النقص بمقتضـي إمكانه ووضعه وذاته، والخروج من هذا النقص يتطلب من العبد الاستمرار في التمسك بذيل رحمته تعالي وأسباب قدرته، وكلما زاد بقاؤه في النقص كلما زاد إحساسه بالبعد وحرمانه عن المراقي التي لم يصل إليها، بل كلما انتبه والتفت إلي ما هو فيه وقاسه إلي ما لم يصل إليه من مدارج العروج إلي ساحة قدسه وكلما انتبه إلي البعد الشاسع اللا متناهي بين ما هو فيه وبين ما هو مقتضـي علو مولاه زاد إحساسه واشـتد وَلَعُهُ وشوقُه وترسَّخ اعتقاده بأنه بعيـد عن رحمته تعالي فاشـتد إحساسه بالحاجة إلي العفو والرحمة.

ومن هنا ينبغي أن ننتبه إلي كثرة استغفار وشـدة حزن وقوة اندفاع أولياء الله سبحانه إلي طلب الرحمة وطلب العفو والغفران للنواقص التي كلما خرج من بعضها تنبه إلي انه محتاج لمزيد من العفو والغفران.

وهنـاك أدلـة نقلية تـدل علي عمـوم وجـوب التوبـة وشـموله للكـل منهـا قـوله سـبحانه: «وَتُوبُوا إِلَي اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»(1)، وقوله تعالي: «وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ

1- -- سورة النور: آية 31.

يُمَتِّعْكُم مَتَاعاً حَسَناً»((1))، وقوله تعالي: «وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَي قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ»((2))، وقوله(عزوجل): «وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ»((3)).

هـذه الآيـات الأربع الأخيرة وإن كان موردها في الأمم السابقـة إلا إن المقياس الـذي أشـير إليه في وجه وجوب التوبـة عام شامل لجميع المكلفين، فكلنا بحاجة إلي أن يمتعنا الله متاعاً حسـناً وكلنا بحاجة إلي أن يرسل السماء علينا مدرارا وكلنا أنشأنا الله من الأرض واستعمرنا فيها وكلنا في أمسِّ الحاجة إلي عطف الرب ورحمته ووده.

ومنهـا: قوله سـبحانه: «أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَي اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»((4)) فيه إنـذار وتحـذير عن ترك التوبة والاسـتغفار وحث علي الإلحاح في المسألة وطلب العفو والرحمة.

ومنها قوله تعالي: «أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ»((5))، ولعل ذكر الافتتان في كل عام مرة

1-- سورة هود: آية 3.

2-- سورة هود/52.

3-- سورة هود/90.

4-- سورة التوبة/126.

5-- سورة المائدة/74.

أو مرتين بيان اقل ما يختبر الله سبحانه عباده وينبههم ليذكروا الله سبحانه ويتوبوا إليه ومعلوم أن هذه الآية كسابقاتها عامة.

وقوله سبحانه: «فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ»((1))، وقوله(عزوجل): «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَي اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً»((2)).

هذا وهناك آيات تدل علي مدح التائبين وتقريظ المستغفرين ومعلوم أن ذلك يستلزم الترغيب فيها والترهيب عن تركها، منها قوله(عزوجل): «إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»((3))، وقوله سبحانه: «التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ»((4))، وقوله(عزوجل): «إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»((5))، وقوله جل من قائل: «إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ»((6))، وقوله(عزوجل): «وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»((7)).

1- -- سورة التوبة/74.

2- -- سورة التحريم/8.

3- -- سورة البقرة/160.

4- -- سورة التوبة/112.

5- -- سورة آل عمران/89.

6- -- سورة النساء/146.

7- -- سورة الأعراف/153.

وقوله(عزوجل): «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ»((1))، وقوله تعالي: «إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ»((2))، وقوله تعالي: «أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»((3))، وغيرها من الآيات التي تدل علي وجوب التوبة أو علي فضلها أو فضل التائبين أو تنص علي المنافع والفضائل والفواضل المترتبة علي التوبة.

ومن الروايات التي تدل علي عموم وشمول وجوب التوبة صحيحة معاوية بن وهب قال سمعت أبا عبد الله(عليه السلام) يقول: (إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة، فقلت وكيف يستر عليه؟ قال يُنسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب ويوحي إلي جوارحه اكتمي عليه ذنوبه ويوحي إلي بقاع الأرض أكتمي ما كان يعمل عليك من الذنوب، فيلقي الله حين يلقاه وليس شيءٌ يشهد عليه بشيء من الذنوب)((4)) وقد تقدَّمت هذه الرواية.

ص: 85

1- -- سورة النحل/119.

2- -- سورة البقرة/222.

3- -- سورة البقرة/104.

4- -- أصول الكافي ج2 باب التوبة ص 430 ح1.

وعن الشيخ البهائي رضوان الله عليه أنه قال: قد ذكر المفسرون في معني التوبة النصوح وجوهاً:

منهـا: إن المراد منهـا توبـة تنصـح الناس أي تـدعوهم إلي أن يأتوا بمثلها لظهور آثارها الجميلـة في صاحبها أو تنصـح صاحبها فيقلع عن الذنوب ثم لا يعود إليها أبداً.

ومنها إن النصوح ما كانت خالصة لوجه الله سـبحانه مأخوذ من قولهم عسل نصوح إذا كان خالصاً من الشـمع وذلك بأن يندم علي الذنوب لقبحها أو كونها خلاف رضا الله سبحانه لا لخوف النار مثلاً، ومن هنا حكم الشيخ المحقق الطوسي (طاب ثراه) في التجريد بأن الندم علي الذنوب خوفاً من النار ليس توبة((1)).

ومنها: إن النصوح من النصاحة وهي الخياطة لأنها تنصح من الدين ما مزقته الذنوب أو تجمع بين التائب وبين أولياء الله وأحبائه كما تجمع الخياطة بين قطع الثوب.

ومنها: إن النصوح وصف للتائب وإسـناده إلي التوبة من قبيل الإسـناد المجازي، أي توبة ينصـحون بها أنفسهم بان يأتوا بها علي أكمل ما ينبغي أن تكون عليه حتي تكون قالعة لآثار الذنوب من القلوب بالكلية وذلك بإذابة النفس بالحسرات ومحو ظلمة السيئات بنور الحسنات.

1- -- وقد تقدمت الإشارة منا إلي هذا المعني.

ومنها: صحيحة أبي الصباح الكناني قال: سألت أبا عبد الله الصادق(عليه السلام) عن قول الله(عزوجل): «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَي اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً»((1))، قال يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه((2)).

وروي محمد بن الفضيل قال سألت عنها ـ أي الآية المذكورة– أبا الحسن(عليه السلام)، فقال يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه، وأحب العباد إلي الله تعالي المفتنون والتوابون((3)).

وروي الكليني بسنده الصحيح عن أبي بصير قال: قلتُ لأبي عبد الله الصادق(عليه السلام) «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَي اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً»((4))؟

قال: هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً.

قلت: وأينا لم يعد؟

فقال: يا أبا محمد أن الله يحب من عباده المفتن التواب((5)).

ومن الروايات التي تدل علي شمول وجوب التوبة صحيحة محمد بن مسلم عن احدهما في قول الله«(عزوجل)فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَيَ فَلَهُ مَا سَلَفَ»((6))، قال الموعظة التوبة((7)).

1- -- سورة التحريم/8.
2- -- أصول الكافي ج2 باب التوبة ص 432 ح3.
3- -- المصدر السابق.
4- -- سورة التحريم/8.
5- -- أصول الكافي ج2 ص432 ح4.
6- -- سورة البقرة/275.
7- -- أصول الكافي ج2 باب التوبة ص431-- 432 ح2.

وينبغي أن يعلم أن الإصرار علي الـذنب كأصـله من المعاصـي التي يجب اجتنابها بل لا يقبل من العبد شـيء من طاعاته ما دام بعيداً عن تقوي الله قال سبحانه: «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ»((1)).

وروي الكليني بسـنده عن أبي بصير قال سمعت أبا عبد الله(عليه السلام) يقول: لا والله لا يقبل الله شيئاً من طاعته علي الإصرار علي شيء من معاصيه((2)).

ويُسـتفاد من الروايات أن عدم المبادرة إلي التوبة يعد إصراراً علي المعصية، فقد روي الكليني (رضوان الله تعالي عليه) بسنده عن جابر عن أبي جعفر(عليه السلام) في قول الله(عزوجل): «وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَي مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»((3))، قال الإصرار هو أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا يُحَدِّث نفسه بتوبةٍ فذلك الإصرار((4)).

بل تصـبح المعصـية الصـغيرة كبيرة بالإصرار وقد علمنا أن ترك التوبة إصرار، فقد روي الكليني (رضوان الله تعالي عليه) بسنده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام) قال: لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار((5)).

1- -- سورة المائدة/27.

2- -- أصول الكافي ج2 باب الإصرار علي الذنب ص288 ح3.

3- -- سورة آل عمران/135.

4- -- أصول الكافي ج2 باب الإصرار علي الذنب ص288 ح2.

5- -- المصدر السابق ح1.

بل واستصغار المعصية مهما كان حجمها فانه يجعل الصغيرة في حكم الكبيرة وعدم الاهتمام بها يغفل الإنسان عن التوبة عنها فيصبح مصرّاً عليها فتصبح كبيرة، ولعله إلي هذا المعني أشار الإمام الصادق (سلام الله عليه) بقوله: (اتقوا المحقرات من الذنوب فإنها لا تغفر، قلتُ: وما المحقرات؟ قال: الرجل يذنب الذنب فيقول طوبي لي لو لم يكن لي غير ذلك((1)).

وإلي هذا يشير قول أبي الحسن موسي بن جعفر (سلام الله عليه): لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلوا قليل الذنوب، فإن قليل الذنوب يجتمع حتي يكون كثيراً، وخافوا الله في السر حتي تعطوا من أنفسكم النصف((2)).

وعن رسول الله(صلي الله عليه و آله): إياكم والمحقرات من الذنوب فان لكل شيء طالباً، ألا وان طالبها يكتب ما قَدَّموا وآثارهم وكل شيءٍ أحصيناه في إمام مبين((3)).

وروي الكليني(رضي الله عنه) بسنده عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام) قال: قال رسول الله(صلي الله عليه و آله): مِن علامات الشقاء جمود العين وقسوة القلب وشدة الحرص في طلب الدنيا والإصرار علي الذنب((4)).

1- -- المصدر السابق باب استصغار الذنب ص287 ح1.
2- -- نفس المصدر ح 2.
3- -- المصدر السابق ص288 ح 3.
4- -- وسائل الشيعة ج15 باب 48 من أبواب جواد النفس(باب تحريم الإصرار علي الذنب ووجوب المبادرة إلي التوبة والاستغفار) ص337 ح 2.

وروي الشيخ الصدوق(رحمة لله) بسنده عن الإمام جعفر بن محمد عن أبيه(عليهم السلام) قال: قال رسول الله(صلي الله عليه و آله): من أذنب ذنباً وهو ضاحك دخل النار وهو باك((1)).

ومعلوم أن الفرح بالمعصية يرمي بالمذنب بعيداً عن التوبة التي قوامها بالندم كما تقدم.

وروي الكليني(رحمة لله) بسنده عن معاوية بن عمار قال: سمعت أبا عبد الله(عليه السلام) يقول: انه والله ما خرج عبد من ذنب بإصرار، وما خرج عبد من ذنب إلا بإقرار((2)).

1- -- المصدر السابق ص338 ح 5.

2- -- وسائل الشيعة ج15 باب 48 من أبواب جواد النفس(باب وجوب اعتراف المذنب لله بالذنب) ص59 ح3.

فائدة في تحليل التوبة والاستغفارأو الاعتراف بالذنب من المعصوم

الـذي يمكن أن يُجمل به القول انه بعد فرض قيام البرهان القطعي مادة وصورة عقلاً أو نقلاً علي عصـمة الأنبياء والأئمة (سـلام الله عليهم) والزهراء* وأضـرابها يجب صـرف ظواهر الكلمات المروية عن تلك الذوات القدسية الظاهرة أو الصريحة في الاعتراف بالذنب أو بما يلازمه عن مسارها الطبيعي كما اسـتقر أفكار أهل الحق والتحقيق في الكلمات الموجودة بالنصوص المعتبرة الظاهرة في التجسيم أو ما يلازمه في ذات الباري جلت عظمته، فيبقي السؤال الـذي لا يخص المقام بل يعم تلك النصوص أيضاً عن الدافع أو الحكمة أو الداعي إلي صدور هذه التصـريحات والكلمـات وذلك لا يخص هـذه المعضـلة بل يعم مساحـة واسـعة من النصوص كالعرش والكرسـي والقول الظاهر بالكلام المركب من الأصوات، وقد قلنا في بعض

ص: 91

المناسبات إن الألفاظ المتداولة والمستخدمة في مقام التفهيم والتفهم هي التي نفهمها، والمتكلم كائناً من كان مضطر إلي حصر محاولاته للكشف عما يريد إبرازه من المعاني فيها، وهذه الألفاظ إنما تكشف بمدلولاتها اللغوية عما نستوعب من المعاني ونتمكن من إدراكها لأنها وُضِعت – اياً ما يكون الواضع – لأجل التفهيم والتفهم بين أفراد البشر أو ما يعم غيرهم أحياناً كالمخاطبات بين البشر وبين الملائكة أحياناً أو بينهم وبين بعض الحيوانات كما جري بين نبي الله سليمان (علي نبينا وآله وعليه السلام) وبين النملة وبينه وبين الهدهد، وما روي من المخاطبات بين بعض المعصومين وبين بعض الحيوانات، وبما إن المتكلم محصور باللغات المتداولة والتي تنحصر كلماتها في المعاني التي يمكن لنا إدراكها فلا- محالة ينحصر سعيه في مقام اختيار الكلمات في تلك اللغات علي ما هي عليه من المواد والهيئات التركيبية والمفردة، فتبرز هناك مشكلة تتمثل في كيفية تَمَكّن تلك الذوات المقدسة من التعبير عن تلك المعاني – التي لا تصل إليها نفوسنا ولا تدركها عقولنا ولا نصل بالغوص إلي أغوارها – بهذه الألفاظ المتداولة والتي تنحصر فيها اللغات المتداولة أو التي انقرضت كلها، فحينئذٍ يضطر المتكلم إلي استخدام التعبيرات الكنائية في مقام تفهيم تلك المعاني العالية مع نصب القرائن ووضع العلامات في ثنايا الكلمات لينتبه من أُعطي

فصل الخطاب والعقل الـدرّاك إلي ما يَرمِز إليه كل واحد من تلك التعابير مع التحذير الشديد لمن ليس أهلاً لفهمها من الخوض فيها علي غرار مـا جـاء في قوله سـبحانه: «آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ»((1))، وقوله تعالي: «وَاسْأَلوا أَهْلَ الـذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ»((2))، وفي هذا المعني يصب سؤال سـلمان الفارسـي لرسول الله(صـلي الله عليه و آله) عن قوله سـبحانه: «وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا - وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا»((3))، فعليه يجب جعل التعبيرات المروية عن معادن العصـمة والطهارة في سياق تلك التعبيرات التي يمنعنا الدليل القطعي العقلي أو النقلي عن الالتزام بمفادها اللغوي وليس ذلك عزيزاً في النصوص المروية والآيات الشريفة.

ومن هذا المنطلق اندفعت الأفكار إلي الخوض في البحث عما يرمز إليه ما روي عن الذوات المقدسة مما يوهم بظاهرهِ أو في الفهم البدوي ما ينافي العصمة، فبرزت هناك أقوال وأفكار نُلخِّص بعضاً منها تقديراً لجهود علمائنا الأبرار شكر الله مساعيهم الجميلة.

ص: 93

1- -- سورة آل عمران/7.

2- -- سورة النحل/43.

3- -- سورة الشمس/1، 2.

وإليك يا أخي العزيز بعض ما أمكن تقديمه علي العجالة...

منها: أن يُحمَل علي تأديب الناس وتعليمهم كيفية الإقرار والاعتراف بالتقصير والذنوب والاستغفار والتوبة منها.

ولا ـ يخفي كما لا ينبغي الريب في أن ذلك إنما يتمشي في الأدعية التي جرت علي ألسنة المعصومين (عليهم السلام) في مقام التعليم كدعاء أمير المؤمنين(عليه السلام) الذي عَلَّمَهُ كميلَ بن زياد (رضوان الله عليه) والدعاء الذي عَلَّمَهُ الإمام علي بن الحسين(عليه السلام) لتلميذه أبي حمزة الثمالي وكبعض الزيارات لغير المعصومين التي عَلَّمها بعض المعصومين مثل ما ورد في زيارة شهداء الطف أصحاب الحسين (عليه وعليهم السلام) (بأبي أنتم وأمي طبتم وطابت الأرض التي فيها دفنتم..الخ) فإنَّ التفدية بالوالدين من المعصوم ابن المعصوم لا يتلاءم تجاه غير المعصوم كائناً من كان، فحمل علي أنه كان بغية التعليم والتأديب للزائر.

وأيضاً إن هذا تصرفٌ في ظواهر الألفاظ وصريح النصوص قد لا يتحمله بعضها مثل ما روي عن النبي الأعظم (صلي الله عليه و آله) انه كان يتوب إلي

الله تعالي سبعين مرة((1))، وفي رواية أخري عنه (صلي الله عليه و آله): إنه ليغان علي قلبي حتي استغفر في اليوم مائة مرة((2)).

وهذا لا يدفعه إلا الاعتماد علي التمهيد الذي اشرنا إليه ويؤول بما لا يتنافي مع الدليل القطعي علي العصمة مع إحالة الكشف عن الحقيقة إلي من بيده أزمة الهداية والكشف عن خفايا الأمور.

ومنها: حمل هذه التعبيرات علي التواضع والاعتراف بالعبودية وان البشر في مظنة التقصير((3))، يعني أن كل ما جاء في أدعية المعصومين إنما جاء هضـماً للنفس وأنه معترف بكونه عبداً لا يملك باقتضاء ذاته شـيئاً من العصـمة والهداية إنما هو من منحة الله تعالي عليه، وباعتباره بشراً فهو في مظنة وقوع التقصير منه فيجعله دائماً في صف المقصرين.

وفيه إن مفهوم التواضع لا يتحقق إلا في ضمن تنازل الإنسان عن مقامه أو حقه في مقام تجاه مقام الآخر كتأخر أحد الزميلين في المشي عن زميله وكجلوس احدهما دون مجلس الآخر وكتخليه عن بعض الألقاب تجاه الألقاب التي يلقب بها زميله المساوي له أو

1- -- أصول الكافي ج2 باب الاستغفار للذنب ص438 ح 4.
2- -- البحار ج 90 باب الاستغفار وفضله وأنواعه ص282 ح 23.
3- -- رياض السالكين ج2 ص472.

مَن هو دونه، فعن الإمام العسكري(عليه السلام): (مِن التواضع السلام علي كل من تمر به والجلوس دون شرف المجلس)((1)).

وعن الإمام الصادق (سلام الله عليه): (إن من التواضع أن يجلس الرجل دون شرفه)((2)).

فالتواضع مفهوم نسبي أو معني إضافي يتحقق بين اثنين لكل منهما مقام بمقتضي استحقاقه فإذا هضم نفسه وأنزلها دون حقه فقد تواضع.

وعلي هذا الأساس يصعب تصوير التواضع بين العبد وبين المعبود وبين العبد وبين المولي الحقيقي نظراً إلي انه لا ـ مقام ولا واقع ولا حقيقة للعبد تجاه المولي حتي يكون التنازل عن بعض تلك المقامات يعد تواضعاً، بل كل ما لديه تفضل من المولي ومنحة بل إشراقة أو إضافة إشراقية فلا يوجد في تلك الحدود إلا النور الذي غمر ماهية العبد فلا يتحرك ولا يُدرك ولا يفعل ولا يمتنع إلا ضمن تلك الإشراقة وبتلك الإضافة فلا يتحقق هناك معني التواضع.

وأما ما ورد في الروايات المعتبرة وغيرها من لزوم التواضع لله سبحانه مثل صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: سمعتُهُ

1- -- تحف العقول الجملة التاسعة من الحكم المروية عن الإمام العسكري(عليه السلام)، والبحار ج72 باب آداب المجالس.. ص 466 ح12.

2- -- أصول الكافي ج2 باب التواضع ص123 ح 9.

يقول إن في السماء ملكين موكلين بالعباد فمن تواضع لله رفعاه ومن تكبر وضعاه((1)).

وصحيحة عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: أفطر رسول الله(صلي الله عليه و آله) عشية خميس في مسجد قباء فقال: هل من شراب؟ فأتاه أوس بن خولي الأنصاري بعُسّ مخيض بعسل فلما وضعه علي فيه نحاه ثم قال شرابان يُكتفي بأحدهما من صاحبه لا أشربه ولا أحرمه ولكن أتواضع لله فإن من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر خفضه الله ومن اقتصد في معيشته رزقه الله ومن بذّر حرمه الله ومن أكثر ذكر الموت أحبه الله((2)).

وغيرهما من الروايات، ففيه إن هذه الرواية ترمي إلي زهده (صلي الله عليه وآله) في نعيم الدنيا كما روي الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) انه(صلي الله عليه و آله) لم يُقدم له طعامان في عرض واحد، فالظاهر المراد منه أن يتواضع الإنسان ويرضي بما دون حقه تجاه الآخرين تقرباً إلي الله فإنه كان من حق الرسول(صلي الله عليه و آله) أن يشرب المخيض بالعسل وقد أباحه الله له كما كان لأوس بن خولي أن يشربه إلا إنه(صلي الله عليه و آله) تنازل عن حقه تقرباً إلي الله، فالتواضع - وهو التنازل عن الحق تجاه الآخرين - إنما يحمد إذا كانت الغاية هي الله سبحانه، وهذا معني التواضع لله سبحانه.

1- -- أصول الكافي ج 2 باب التواضع ص122، ح 2.

2- -- المصدر السابق ح 3.

وبهذا يُفسَّر ما ورد عن الإمام الباقر(عليه السلام) في سيرة الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) إنه ما ورد عليه أمران قط كلاهما لله رضي إلا أخذ بأشدهما علي بدنه((1)).

وعلي هذا ما روي من المعصومين(عليهم السلام) من الإقرار والاعتراف بالتقصير والذنوب والاستغفار والتوبة لا يمنع حمله علي التواضع.

ومن هنا نعرف إن ما صدر من بعضهم من إن للمعصومين(عليهم السلام) تكاليف خاصة غير ما كلفنا به وان استغفارهم أو اعترافهم بالذنوب والتقصير باعتبار تكاليفهم الخاصة لا يخلو من سخافة، فإن اختلاف الناس في التكاليف أمرٌ كاد يكون بديهياً فتكليف المسافر غير الحاضر وتكليف الزوج غير المرأة وتكليف المرجع غير المقلد وتكليف النبي والإمام غير سائر الناس والكل يعتبر مذنباً إن تخلَّف عنه عمداً.

وأما ما قيل من إن حسنات الأبرار سيئات المقربين فذلك لا يدل إلا علي اختلاف التكاليف فرُب فعلٍ من ضعيف الشخصية وقليل العلم وحديث العهد بالإيمان لا يُعد معصيةً منه ولكنه إن صدر عن غيره يكون معصية حسب الموازين الشرعية وهذا لا يعني انه إذا

1- -- البحار ج40 ص329 عن مناقب آل أبي طالب وج 40 أيضاً ص339 عن أمالي الشيخ الطوسي (ره).

صدر منه ما هو حسب الموازين الشرعية محرم عليه لا يكون منافياً للعصمة.

ودعوي إن وضع المعصوم نفسه في موضع المُقَصِّر مع علوه بشرفه عن هـذه المرتبة الحضـيضة يُحقق معني التواضع لأنه بموجبه قد تنازل عمّا له وتبني ما ليس له عند الله سبحانه فاسدة.

أولاً: مِن ظاهر صـريح بعض الأدعية من الاعتراف بالذنب وحصول التقصير منه كما في الدعاء الثاني عشر من الصحيفة السجادية الميمونة (اللهمَّ يحجبني عن مسألتك خلال ثلاث، وتحدوني عليها خلةٌ واحدة، يحجبني أمرٌ أمرتَ به فأبطأتُ عنه، ونهيٌ نهيتَني عنه فأسـرعتُ إليه، ونعمةٌ أنعمتَ بها عليّ فقصـرتُ في شـكرها) إلي أن يقول (عليه السلام) (فهل ينفعني يا إلهي إقراري عندك بسوء ما اكتسبت، وهل ينجيني منك اعترافي لك بقبيح ما ارتكبت) وهذا كما تري لا يتلاءم بظاهره بأنه مجرد تواضع.

وثانياً: إن ذلك لا يحقق معني التواضع إلا إذا ثبت أن للعبد إذا أحسن في العمل واجتنب كل ما يجلب سـخط الرب حقاً علي الله سـبحانه ومقاماً لديه، مع إن الظاهر من كلمات الأئمة(عليهم السلام) المأثورة عنهم(عليهم السلام) أن كل ما يفعله العبد هو باقتضاء العبودية وكل مـا يـأتي منه سـبحانه تفضـل، نعم انه يسـتحيل أن يفعل بالمؤمنين المخلصـين غير الإكرام لِما وعـد الصالحين به من التفضل انطلاقاً من استحالة صدور

خلف الوعد بالإحسان لقبحه وعدم تلاؤمه مع مقام السيادة المطلقة له تعالي.

وأما ما في ذيل هذا الوجه (وان البشـر في مظنة التقصير) فقد تبين انه إنما يمكنه حمل ما روي عنهم(عليهم السلام) علي هذا المعني إذا لم يعرفوا حقيقة ما صدر منهم ونتيجة إعمالهم وما يؤول إليه من مكتسباتهم، وهو يتلاءم مع من فقد العصمة ولم يعرف حقيقة عمله كما يشير إليه بعض ما جاء في الـدعاء الـذي عَلَّمه الإمام السـجاد(عليه السـلام) تلميذه أبا حمزة الثمالي وعلمه كيف يعترف بما هو عليه (لعلك عن بابك طردتني وعن خدمتك نحيتني، أو لعلك رأيتني مسـتخفاً بحقك فأقصيتني، أو لعلك رأيتني معرضاً عنك فقليتني، أو لعلك وجدتني في مقام الكاذبين (الكذابين) فرفضـتني، أو لعلك رأيتني غير شاكر لنعمائك فحرمتني، أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني، أو لعلك رأيتني في الغـافلين فمن رحمتك آيسـتني، أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين فبيني وبينهم خليتني، أو لعلك لم تحب أن تسـمع دعائي فباعـدتني، أو لعلك بجرمي وجريرتي كافيتني، أو لعلك بقلـة حيائي منك جازيتني، فإن عفوت يا رب فطالما عفوت عن المـذنبين قبلي لأن كرمك يا رب يجل عن مكافأة المقصرين).

فمثل أبي حمزة الثمالي البعيد عن مقام العصمة وشرف الولاية المطلقة والفناء في مقام العظمة الإلهية يكون في مظنة المقصرين

ص: 100

واقعاً فيبقي بين الخوف والرجاء مخافة أن يكون في زمرة المذنبين المقصرين مع رجاء عفوه ورحمته لئلا يحاسبه بما يليق بشأنه بل يعامله بلطفه وكرمه بما يليق بجنابه تبارك وتعالي، وبهذا يفسر ما جاء في ذيل الدعاء الذي علمه أمير المؤمنين(عليه السلام) تلميذه العابد الزاهد كميل بن زياد(رضوان الله عليه) (يا من اسمه دواء وذكره شفاء وطاعته غنيً، ارحم من رأس ماله الرجاء وسلاحه البكاء، يا سابغ النعم، يا دافع النقم، يا نور المستوحشين في الظلم، يا عالماً لا يُعلَّم، صلِّ علي محمد وآل محمد وافعل بي ما أنت أهله...) الخ الدعاء.

ومنها – أي من الوجوه --: إن الاعتراف بالذنوب والاستغفار منها إنما هو علي تقدير وقوعها، والمعني إن صدر مني شيءٌ من هذه الأمور فاغفره لي لما تقرر من انه لا يلزم من صدق الشرطية صدق كل واحد من جزئيها((1)).

وفيه أولاً: انه ينافي صدق القضايا المشروط فيها فعلية الوصف العنواني كما هو مسلك المحققين وينافي صريح ما تقدم من الفقرات في الدعاء الثاني من الصحيفة السجادية.

وثانيا: إن العصمة وان كانت لا تسلب قدرة المعصوم علي المعصية – وإلا لما بقي له فضل – إلا أن صدورها منه مستحيل وقوعاً

1- -- رياض السالكين ج2 ص472.

لاستلزامه الجهل – العياذ بالله – في حق من شهد بعصمته تعالي عن ذلك علواً كبيراً.

وثالثاً: إن حمل القضايا الحملية علي الشرطية في مقام الإقرار والاعتراف مع البعد في المغزي والتعبير واللوازم والمستلزمات بينهما بلا مسوغ.

ورابعاً: إن كان الشرط الذي لا يجب صدقه في القضية الشرطية في المقام يعني فقدان المناعة الذاتية في حق المعصوم فذلك لا يثبت إلا الإمكان الذاتي وهو لا ينافي الاستحالة الوقوعية الثابتة بمقتضي العصمة وإن كان من جهة اقتضاء القوة الشهوية فقد برّأ الله سبحانه المعصومين منها لا بمعني خلوهم عن مقتضي التكوين البشري بل بمقتضي المناعة الناشئة عن العصمة.

ومع هذا كله إن هذا الوجه لا بأس به من حيث أحد التأويلات إن عجزنا عن فهم ما روي عنهم من التعبيرات الصحيحة في الاعتراف بالتقصير وباكتساب ما لا يليق بالعبد فيكون مقتضاه أنهم يطلبون إلي الله الاستمرار في الحماية لأن العصمة لطف منه تعالي واستحالة صدور المعاصي منهم وقوعية بمعني سلب الإمكان الوقوعي والله العالم.

ومنها – أي من الوجوه –: أنهم يتكلمون علي لسان أمتهم ورعيتهم فاعترافهم بالذنوب اعتراف بذنوب أمتهم ورعيتهم واستغفارهم

لأجلهم لأن كل راع مسؤول عن رعيته، وإنما أضافوا الـذنوب إلي أنفسـهم المقدسـة للاتصال والسـبب ولا سـبب أوكد مما بين الرسول أو الإمام (عليهما الصـلاة والسـلام) وبين أمته ورعيته، ألا تري إن رئيس القوم إذا وقع من قومه هفوة أو تقصير قام هو في الاعتذار عنهم ونسب ذلـك إلي نفسه وإذا أُريـد عتـابهم وتوبيخم وُجِّهَ الكلاـم إليه دون غيره منهم وإن لـم يفعـل هو ذلك ولا شـهده وهـذا وجه في الاسـتعمال معروف((1)).

أقول ويؤيـد هذا الوجه ما روي في تفسـير قوله سـبحانه: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ»((2)) في تفسـير البرهان للسيد هاشم الحسـيني البحراني(رضـي الله عنه) عن علل الشـرائع للشيخ الصدوق أنه قال رسول الله(صلي الله عليه و آله): يا علي أن الله تبارك وتعالي حَمَّلَني ذنوب شيعتك ثم غفرها لي وذلك قوله(عزوجل) ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر((3)).

ومـا رواه علي بن إبراهيم بسـنده عن أبي عبـد الله الصـادق (سـلام الله عليه) في قوله(عزوجـل): «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ»((4))،

ص: 103

1- -- رياض السالكين ج2 ص 472-- 473.

2- -- سورة الفتح/2.

3- -- علل الشرائع ج1 ص 172.

4- -- سورة الفتح/2.

قال: ما كان له ذنبٌ ولا همٌ بذنبٍ ولكن الله حَمَّلَهُ ذنوبَ شيعته ثم غفرها له([1]).

وكذلك ما رواه البحراني(رضي الله عنه) في تفسيره عن الصدوق(رضي الله عنه) في كتابه تأويل الآيات بسنده عن محمد بن سعيد المروزي قال: قلتُ لرجلٍ (الإمام الهادي(عليه السلام)) أأذنبَ رسول الله(صلي الله عليه و آله) قط؟ قال: لا، قلتُ: فقوله عز وجل: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ»([2])؟ قال: إن الله سبحانه حَمَّلَ محمداً(صلي الله عليه و آله) ذنوب شيعة علي(عليه السلام) ثم غفر له ما تقدم منها وما تأخر([3]).

وكذلك ما قال شرف الدين النجفي: ويؤيده ما روي مرفوعاً عن أبي الحسن الثالث(عليه السلام) انه سئل عن قول الله(عزوجل): «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ»([4])، فقال(عليه السلام): وأيّ ذنبٍ كان لرسول الله(صلي الله عليه و آله) متقدماً أو متأخراً، وإنّما حَمَّلَهُ الله ذنوب شيعة علي(عليه السلام) مَن مضي منهم ومَن بقي ثم غفرها له([5]).

1- -- تفسير البرهان ج1 ص 112 عن تفسير القمي ج2 ص 214.

2- -- سورة الفتح/2.

3- -- تفسير البرهان ج9 ص113، تأويل الآيات ح2 ص591.

4- -- سورة الفتح/2.

5- -- تفسير البرهان: ح9 ص113، تأويل الآيات ح ص395.

وقال الطبرسي(رضي الله عنه) روي المفضل بن عمر عن الصادق(عليه السلام) قال: سأله رجلٌ عن هذه الآية فقال: والله ما كان له ذنب ولكن الله سبحانه ضمن له أن يغفر ذنوب شيعة علي (عليه السلام) ما تقدم من ذنبهم وما تأخر((1)).

ولا يبعد أن يكون تحمل الرسول الأعظم(صلي الله عليه و آله) والأئمة المعصومين(عليهم السلام)، مسؤولية الاستغفار عن شيعتهم عطفاً منهم عليهم ورحمة منهم لهم لما تحمل الشيعة وما زالوا يتحملون في سبيل حبهم لائمتهم(عليهم السلام)، كما يشير إليه الخبر المعتبر الذي رواه ابن وهب، قال: سمعت الإمام الصادق(عليه السلام) يدعو وهو ساجد (اللهمَّ يا من خصنا بالكرامة، ووعدنا الشفاعة، وخصنا بالوصية، وأعطانا علم ما مضي وعلم ما بقي، وجعل أفئدة من الناس تهوي إلينا، اغفر لي ولإخواني وزوار قبر جدي الحسين الذين أنفقوا أموالهم واشخصوا أبدانهم رغبة في بِرِّنا، ورجاءاً لما عندك في صلتنا، وسروراً أدخلوه علي نبيك و إجابة منهم لأمرنا وغيظاً أدخلوه علي عدونا أرادوا بذلك رضاك، فكافهم عنا بالرضوان، واكلأهم بالليل والنهار، واخلف علي أهاليهم وأولادهم الذين خلفوا بأحسن الخلف واصحبهم، وأكفهم شرَّ كل جبار عنيد وكل ضعيف من خلقك وشديد وشرَّ شياطين الأنس والجن، وأعطهم أفضل ما

1- -- تفسير البرهان: ج9 ص113-- 114، ومجمع البيان ج9 ص168.

أملوه في غربتهم عن أوطانهم وما آثرونا به علي أبنائهم وأهاليهم وقراباتهم، اللهمَّ إن أعدائنا عابوا عليهم خروجهم إلينا فلم ينههم ذلك عن الشخوص إلينا خلافاً منهم علي من خالفنا، اللهمَّ أرحم تلك الوجوه التي غَيَّرتها الشمس، وارحم تلك الخدود التي تقلَّبت علي صخرة أبي عبد الله الحسين، وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا، وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا، وارحم تلك الصرخة التي كانت لنا، اللهمَّ إني استودعك تلك الأنفس والأبدان حتي توفيهم علي الحوض يوم العطش الأكبر).

ولما استكثر ابن وهب هذا لزوار الحسين(عليه السلام) قال له الإمام الصادق(عليه السلام) إن مَن يدعو لزوار الحسين(عليه السلام) في السماء أكثر ممن يدعو لهم في الأرض((1)).

وفيه إن الروايات الواردة في تفسير الآية: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً»((2)) ضعيفة السند مضافاً إلي إن مضمونها تحميل الرسول (صلي الله عليه و آله) فقط ذنوب الشيعة ومعناه عليه أن يستغفر لهم ومضمون الأدعية الاعتراف بصدور ما يقتضي وجوب الاستغفار وكم بين المعنيين من البون.

1- -- كامل الزيارات الباب الأربعون ح 2، وثواب الأعمال ص94-- 96، و الكافي ج4 ص582-- 583.

2- -- سورة الفتح/2.

وأيضـاً إن الكلاـم في اعتراف جميع المعصومين من لـدن أبينا آدم(عليه السـلام) إلي منتهي سلسـلة الإمامـة وهو لا ينسـجم مع الروايات المومي إليها.

وأيضاً إن الكثير من التعبيرات في الأدعية يأبي أو يبعد هذا التأويل.

وأما صـحيحة ابن وهب فهي كالصـريحة في إن الإمام(عليه السـلام) يسـتغفر لشـيعته ومحبيه، مما يعني نسـبة معاصيهم إليهم وتحميلهم المسؤولية.

وأما ما مثل به بأن رئيس القوم إذا وقع من قومه هفوة أو تقصـير قام هو في الاعتـذار عنهم ونسب ذلك إلي نفسه...الخ، ففيه خلط بين مقامين أحـدهما شـفاعة رئيس القوم لمن يترأسه وهـذا مقـام جليـل يتبنـاه ويتولاـه كـل مخلص لقومه ويكون هـذا المقام العالي الشـريف لسـيد الرسل(صـلي الله عليه و آله) يوم القيامة وهو الذي يشير إليه قوله سبحانه: «عَسَي أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً»((1))، وهي أرجي آية في القرآن، والبحث هو في الاعتراف بالأخطاء وما يقتضي وجوب التوبة والفرق بين المقامين لا ينبغي أن يخفي.

وثانيهما هو أن يعترف الرئيس بتقصيره فيعتذر عن نفسه في احتوائه المواقف السيئة من قومه، وهذا قد يفعله بعض الرؤساء ولن

1- -- سورة الإسراء/ 79.

يكون من معصوم بل يكون منه(صلي الله عليه و آله) عكس ذلك فيقول (صلي الله عليه و آله) كما حكي عنه القرآن الكريم: «وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً»((1)).

مضافاً إلي ذلك كله لا يوجد في شيء من تلك النصوص المتضمنة للاعتراف بما يقتضي وجوب التوبة ما يؤيد هذا المعني.

نعم لو وجدنا ما يدل عليه لما كان حجر في الالتزام بهذا المعني في نفسه.

ومنها -أي من الوجوه -: ما ذكره الشيخ علي بن عيسي الاربلي (رحمه الله) في كتابه كشف الغمة فقال: أن الأنبياء والأئمة(عليهم السلام) تكون أوقاتهم مستغرقة بذكر الله تعالي وقلوبهم مشغولة وخواطرهم متعلقة بالملأ الأعلي وهم أبداً في المراقبة كما قال(عليه السلام) (أعبد الله كأنك تراه فإن لم تره فأنه يراك)((2)) فهم أبداً متوجهون إليه مقبلون بكليتهم عليه ومتي انحطوا عن تلك المرتبة العالية والمنزلة الرفيعة إلي الاشتغال في المأكل والمشرب والتفرغ للنكاح وغيره من المباحات عَدّوه واعتقدوه خطيئةً فاستغفروا منه، ألا تري إن بعض عبيد أبناء الدنيا لو قعد يأكل ويشرب وينكح وهو يعلم إنه بمرأي من سيده ومسمع

ص: 108

1- -- سورة الفرقان/30.

2- -- مكارم الأخلاق ص 459.

لكان ملوماً عند الناس ومقصراً فيما يجب عليه من خدمة سيده ومالكه، فما ظنك بسيد السادات ومالك الأملاك، وإلي هذا أشار(صلي الله عليه و آله) بقوله (إنه ليران علي قلبي وأني لأستغفر الله في النهار سبعين مرة)((1))

وقوله (حسنات الأبرار سيئات المقربين)((2))

انتهي كلامه علي ما لخصه في رياض السالكين((3)) واستحسنه كثيراً قائلاً وهو أحسن ما تضمحل به الشبهة.

ونُسِب نفس هذا المعني إلي القاضي ناصر الدين البيضاوي في شرح المصابيح عند شرح قوله(صلي الله عليه و آله) (أنه ليغان علي قلبي وأني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة).

أقول: لم أعرف وجه استحسان هذا العبقري الفذ السيد علي خان الحسيني(رضي الله عنه) لهذا الوجه الذي لا أجد فيه ما يقتضي الاستحسان إذ فيه:

أولاً: إن المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم لا يشتغلون بالمباحات إلا إذا اقتضت ضرورة الحياة الدنيوية بمقتضي إمكان وجودهم فيصبح انشغالهم بها من الواجبات المطلوبة منهم بنحو الالتزام، بل قد نقل أن هذا ديدن الصالحين الكُمَّل

1- -- البحار ج 25 ص 204-205.

2- -- المصدر السابق ص 205.

3- -- رياض السالكين ج2 ص 473.

الذين اقتفوا أثر أولئك المعصومين في تهذيب أنفسهم والذين لم يصلوا شأو الأئمة(عليهم السلام)، هذا وقد نُقِل عن بعض فقهائنا الأبرار إنه لم يفعل مُباحاً طيلة أربعين سنة، وربما يكون انشغالهم في المباح لبيان حُكمِه فهم علي ذلك ملزمون بالتبليغ وتوضيح الشريعة الغراء.

وأيضاً أن كان انشغاله بتلك المباحات بترخيص منه تعالي كما يشير إليه قوله سبحانه: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»((1)) فلا معني لاعتدادها معصية وأنه بتأثير الشيطان ونحوه بل الاستفادة بنعم المنعم والتظاهر بالتمتع بها أمامه نوع من الشكر الواجب علي العباد عقلاً وشرعاً.

وغريب منه(رضي الله عنه) المثال الذي ضربه لما ذهب إليه من أن بعض عبيد الدنيا لو قعد يأكل ويشرب... إلي قوله لكان ملوماً، إذ فيه إن كان جلوس العبد بسماح من المولي لما كان جلوسه مجلبة للوم العقلاء، وأن كان بدون أذن وترخيص منه وفي وقت لم يرخصه له به ولم يحدده وقت راحته لكان مستحقاً للوم من العقلاء والعقوبة من السيد وأين هذا من مقام الأئمة(عليهم السلام) تجاه رب العالمين.

ص: 110

1- -- سورة الأعراف/32.

وأما ما روي من (أن حسـنات الأبرار سـيئات المقربين) فلعمري إنه لغريب جداً رَبْطه بالمقام فإن الفقرة إن صـحت نسـبتها للمعصوم تعني اختلاف التكاليف باختلاف المراتب فإن من ارتقي المراتب العليا في القرب الإلهي لكان ما يصدر منه بحسب مقامه معصـيةً وإن لم يُعتبر معصيةً إن صدر ممن هو دونه في المقام والمنزلة.

ثم أنه لا ينبغي الامتراء في اختلاف الأعمال بالمراتب من حيث اقتضاء الحكمـة الإلهيـة بل ربما يكون عمل واحد بعض أجزائه أفضل من البعض كالسجود في الصلاة فأنه أفضل أجزائها وهذا التفاضل موجود في الواجبات والمستحبات علي حد سواء بل يوجد ذلك التفاضل في التكـاليف الإلهيـة علي الإطلاـق وهـذا لا يعني أن ترك الأفضل في الوقت والظرف الـذي طلب من العبـد المفضول انحطاطاً للمكلف إذا أشـتغل بالمفضول فليس القيام في الصـلاة انحطاطاً للمصـلي والاشـتغال بعبادة أخري في ظرفها غير الصلاة انحطاطاً وتن-زلاً من المنزلة العليـا بالقيـاس إلي المكلف، وإنمـا يكون انحطـاط إذا كان العـدول من الأفضل إلي المفضول مع تمكنه من الأفضل اسـتجابة لاشـتهائه النفسـي وباقتضاء طبعه اسـتجابة للراحة النفسـية، فإذا علمنا إن المعصومين (سـلام الله عليهم) لا يفعلون ولا يقولون بل لا يشتهون إلا ما يريده الله سبحانه في جميع مراحل

حياتهم: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَي - إِنْ هُوَ إِلّا وَحْيٌ يُوحَي»((1))، «وَمَا تَشَاءُونَ إلا أَنْ يَشَاءَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»((2))، وما روي في وصف عمل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) أنه ما عرض عليه أمران كلاهما لله رضيً إلا اختار أشدهما علي نفسه((3))،

فكيف يُتصور ما جاء في كلام هذا الجليل فليس انشغال المعصومين(عليهم السلام) بالمباحات حينما يقتضي منهم ذلك حاجتهم إليها لاقتضاء حياتهم وأنهم بشرٌ مثلنا، ومعلوم أيضاً أنهم أفضل من الملائكة الذين يقول الله في حقهم: «لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ»((4))، مع تصور ما جاء في كلام هذا الجليل من أنهم ينشغلون في المباحات عن العبادات فما يفعله المعصومون من المباحات بعنوانها الأولي عبادات بعنوانها الثانوي.

ومن الوجوه: ما قيل أن العبد الكامل من عبد الله في جميع مراتب العبودية وحيث كانت العبادة علي أقسام منها عبادة المخلصين الراجين، وقسم منها عبادة الخائفين العاصين، كان الإمام المعصوم طالباً لأن يعبد الله بالعبودية الكاملة والسير في جميع مراحلها ففي بعض الأحيان ينزل نفسه منزلة المذنب العاصي ويذكر في دعائه ما

1- -- سورة النجم: الآيتان 3، 4.
2- -- سورة التكوير: آية 29.
3- -- البحارج 40 ص 329.
4- -- سورة الأنبياء/ 27.

يقوله المرتكب بجميع المعاصي وليس ذلك إلا لما ذكر درك ملاذ العبادة بجميع أقسامها والوصول إلي كمال العبودية من طرقها بأسرها، ويشهد لما ذكرنا بل يدل عليه قول الإمام زين العابدين(عليه السلام) في دعائه في التذلل لله سبحانه

علي ما في الصحيفة الكاملة الدعاء الثالث والخمسين قال(عليه السلام) بعد كلام له.... (قد أوقفتُ نفسي موقف الأذلاء المذنبين، موقف الأشقياء المتجرِّئين عليك المستخفين بوعدك...) إلي آخر الدعاء.

وهذا هو المراد في جميع ما ورد في الأدعية من الاعتراف بالذنب والمعصية من هؤلاء المعصومين(عليهم السلام)((1)) انتهي.

أقول: فيه أولاً إن من بلغ المرتبة العليا في مراحل الرقي لا معني لان يطمع في المرتبة الدنيا قال الله سبحانه: «أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَي بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ»((2))، مضافاً إلي استهجان ذلك عند العقلاء.

وثانياً: نسبة الذنوب التي لم يرتكبها إلي نفسه ووصمها بما هو عار علي العبد مع كونه خلاف الواقع مستهجن من جهتين، من جهة الكذب ومن جهة الوقوف أمام السيد في صف المغضوب عليهم والضالين.

1- -- هامش كشف الغمة ج2 ص 255 ط إيران الحاج السيد هاشم الرسولي.

2- -- سورة البقرة/61.

وثالثاً: الإحساس باللـذة في العبادة والتـذلل والعبودية مقام الشـرفاء ومنزلة من بلغ المقام الذي يقتضـي انقلاب التكاليف إلي المرغوبات والمطلوبات انه مقام جليل يطمع فيه أمثالنا إلا أن الذي جاوز هذه المرحلة وأصـبح من مقام الواجب الوجود قاب قوسـين أو أدني فسقطت الحجب ومنها حجب العظمة وانمحت الحدود قد أصـبح مع ذلك المقام الشريف بالقياس إليه مُستَقبحاً لأنه يتوقف علي الإحساس باللذة المسـتلزم للإحساس بوجوده المحدود وتعقله له أنه في مقام يستلذ بالرؤية والعبادة والامتثال وسادتنا الأطهرون أعلي من هذه المرتبة بكثير فلاـ يتصور في حقهم التلـذذ بالعبـادة، بل يسـتفاد من بعض أدعيتهم ما مغزاه أنه لو طرد – فرض المحال – لما برح من بابه تعالي فليس في مقام امتياز لوجودهم ومستلذاتهم عما هو مطلوبهم فهم لا يطلبون إلا إياه، ولذا نُقِلَ عن بعض الأعلام في دعاء البهاء إن المطلوب للداعي هو المدعو، فعليه لا نسـتحسن ما جاء في هذا الوجه من أنهم(عليهم السـلام) يبحثون عن ملاذ العبادة حتي وصلت بهم الحال أن يستلذوا بعبادة من دونهم في المراحل.

وأما ما في دعاء الإمام زين العابدين(عليه السـلام) فالتعبير لا يعني ما فهمه صاحب هذا الوجه بل هو ظاهر في الاعتراف بالذنب والمعصية التي نحن بصدد فهمه.

ص: 114

ما يقتضيه النظر

اشارة

ينبغي أن نعلم انه ليس مثار الشبهة منحصراً فيما جاء في الدعاء المشار إليه بل هناك منابع متعددة للشبهة ومتنوعة كلها تستجلب التأمل والبحث عن وجه الملائمة بينها وبين العصمة وإليك عناوينها:-

منها: الاعتراف من المعصوم بتسلط الشيطان اللعين عليه مع التظلم والاستعانة بالله سبحانه ليخلصه من شر ذلك اللعين وانه تأثر أو يتأثر بأفعال اللعين إبليس.

ومنها: الاعتراف بارتكابه المعاصي بجوارحه وأعضائه كلها كما جاء في الدعاء المنسوب إلي الإمام موسي بن جعفر(عليه السلام) ودعاء سيد الشهداء(عليه السلام) يوم عرفة وغيرهما.

ومنها: تضرعه إلي الله سبحانه في مقام التوبة إليه سبحانه وطلب المغفرة بجد مما يقتضي الاعتراف الحقيقي بصدور المعاصي منه واستجابة الله سبحانه للتوبة بالغفران.

ومنها: خوفه الواضح والجلي وبداعٍ حقيقي من نار جهنم والذي لا ينبعث إلا من الاعتقاد الجازم المقتضي لاستحقاقه لها.

ومنها: ما جاء في غير واحد من الأدعية كدعاء يوم الاثنين الموجود في ملحقات الصحيفة السجادية الذي نقله المحدث الجليل الشيخ عباس القمي(قدس سره) في مفاتيح الجنان من الاعتراف باعتدائه علي الآخرين ويتوسل إليه سبحانه ليتولاه ويتولي

الإصلاح بينه وبين من ظلمه ويتولي أيضاً أداء حقوق العباد التي عليه نيابة عنه.

هذه هي المناشيء للشبه التي تعترض أمام الناظر ويتخيلها منافية للعصمة خصوصاً معناها الذي نعتقده في النبي الأعظم (صلي الله عليه و آله) والأئمة المعصومين من ذريته(عليهم السلام) من أنهم لم يرتكبوا حتي ترك الأولي.

والذي نعتقد هو أنه لا يكفي جواب واحد عن جميع هذه الشبه إذ حسب تخيلنا إن لكل واحد من هذه الأمور التي أشرنا إليها وجهاً يخصه وتحليلاً يرتبط به ليندفع ما نتوهمه من منافاته مع العصمة، فنقول وبالله الاستعانة:-

المنشأ الأول

ينبغي أن يُعلَم ان إبليس وأعوانه من الجن والأنس يسعون دائماً بمقتضي خبثهم وعداوتهم للخير وأهله حقداً وحسداً علي ما مَنَّ الله به علي الصالحين من عباده من كرامة التقرب وشرف العبودية مع الإخلاص يسعون في صرف الصالحين المعصومين وغيرهم عن منهجهم، ويتضمن هذا السعي خلق العوائق ويكون ذلك ضمن تسلط الأبالسة علي الوسائل الدنيوية والمرافق المادية، وهذا التسلط

وإن كـان بإمهال من الله سـبحانه يتضـمن الكشف عن قبـح سـريرة الأبالسـة وسوء نياتهم مما يجعل ذلك حجـة عليهم وتبياناً لغيرهم لما يقتضي شدة العذاب لهم يوم القيامة، كما يتضمن إتاحة الفرصة للصالحين لنيل الكرامة لأنه كلما زاد الجهد زاد الأجر وكلما زادت العوائق اشتد الجهد وكلما كانت البلية أعظم كان فضل العمل أكبر كما جاء إن أفضل الأعمال أحمزها((1)).

ومن هذا المنطلق إبليس وأعوانه يسعون بكل الطرق وبكل وسيلة إلي النيل من أولياء الله سبحانه فيتسلط علي مال ولي الله وعلي أولاده إما بـالمرض والقتـل والتشـريد وأما بالإضـلال إذا لم يكن معصوماً ليخلق بـذلك أذيـةً عائقـةً حسب وهمه اللعين لتمنع ولي الله سـبحانه عن مواصـلة السير والسلوك في طاعة الله سبحانه والترقي في مراتب العبودية لترتفع درجته ويعلو مقامه لديه سبحانه كما تسلط علي قابيل فأغواه وتمكن من خلاله من قتل هابيل.

وربمـا يسـتعين اللعين بأعوانه من الأنس فيسـلط عـدواً من أعـداء الله سـبحانه علي ماله فيتلفه أو ولـد يمرضه أو يغويه فيبكي الولي ويتألم ويحصل الولي من خلال ذلك درجة فيخيب إبليس وأعوانه من الجن والأنس.

1- -- البحار ج 67 ص 190، ومفتاح الفلاح ص 45.

وكذلك يتسلط أعداء الله من الجن والأنس علي جسد ولي الله بخلق الأمراض الجسدية لتمنعه بها عن مواصلة العمل في طاعة الله فيصيب الولي مرض يقعده وآلام في جسده تشدد عليه الطريق وتؤدي إلي حدوث عوائق يتألم روح ولي الله لها لأنها تمنعه مما يشتهيه ويرجوه ويأمل من العمل، ولكن الله سبحانه يعطيه أجر ما فقد لأجل نيته الاستمرار علي النهج الذي كان عليه قبل الابتلاء بالأمراض، ويصيب المعصوم الضعف في الجسد كما جاء في حديث الكساء من قول النبي الأعظم(صلي الله عليه و آله) أري في بدني ضعفاً، والمعصوم في مقام المقارعة يصيبه الضعف في البدن كما حدث لسيد الشهداء(عليه السلام)، فإنه لما كثرت الجراحات ضعف عن القتال، كما لا شك في أن المعصوم يمر في مراحل الطفولة والمراهقة ثم إلي الكهولة والشيخوخة والهرم.

وقد اشتبه هذا المعني – وهو أنه قد يتسلط إبليس أو أعوانه الظلمة علي جسد المعصوم – علي بعض مِمَّن يُنسب إلي التشيع فتخيل انه لا يمكن أن يُقتَل سيد الشهداء(عليه السلام) فتوهم انه لم يقتل وانه رفع إلي السماء وقد شبه للأعداء فقتلوا شبيهه علي نحو ما كان لعيسي ابن مريم (عليه السلام)، وكاد ينتشر هذا الوهم بين السذج من الشيعة فصدر التوقيع من ولي الله الأعظم (عجل الله فرجه الشريف) باللعن علي من يعتقد أن سيد الشهداء(عليه السلام) لم يقتل.

ص: 118

والفرق بين الشيعي المخلص الواعي المعتقد بإمكان تسلط الظالم علي بدن المعصوم دون عقله وبين غير المخلصين بإمكان تسلط الضعف علي عقله اوجب صدور تلك الكلمة الكافرة في حق الرسول الأعظم(صلي الله عليه و آله) انه ليهجر.

وكذلك يحاول اللعين بأعوانه من الجن والأنس التسلط علي نفسه وفكره وعقله، فهنا يتميز المعصوم عن غيره فالمعصوم قد مُنِحَ المناعة والقوة الروحية والبصيرة في النفس والعقل فيعجز اللعين وأنصاره عن التأثير فيه فلا يتمكن من سلب شيء من مراتب التديّن ومراقي الخلوص منه لان الله تعالي أعدَّ المعصوم للقيام بادوار خاصة فجهزه بما يفتقر إليه في مقام القيام بوظيفته.

نعم يعاني المعصوم من الآلام التي تتسبب من محاولات اللعين إبليس وأعوانه في التأثير علي عقله ونفسه فهو يخلق العقبات أمام المعصوم فيتألم في سبيل تجاوزها، ولأجل إمكانه الذاتي واحتياجه إلي التسديد الدائم يستمر في الاستعانة به سبحانه.

ويؤيد ذلك ما ورد في القرآن والروايات فيما يخص نبي الله أيوب(عليه السلام) فقال متضرعاً إلي سبحانه: «إِذْ نَادَي رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ»((1))، إذ كان اللعين أفني أمواله واهلك أولاده وأوقعه في أمراض شديدة وآلام مبرحة.

1- -- سورة ص/41.

وقد نقل السيد هاشم البحراني(رضي الله عنه) في تفسيره الروايات التي تقتضي ما قلناه من تسلط إبليس اللعين علي ما منح الله سبحانه له من نعم الدنيا وصرح الأئمة(عليهم السلام) في الروايات التي نقلها السيد المذكور في تفسير الآية مِن أن الله ابتلي نبيه أيوب من غير ذنب نقله عن علل الشرايع وتفسير القمي والكافي وغيرها.

ويرشد إليه ما جاء في هامش مفاتيح الجنان - الباقيات الصالحات- (اللهمَّ إن إبليس عبد من عبيدك يراني من حيث لا أراه وأنت تراه من حيث لا يراك أنت أقوي علي أمره كله وهو لا يقوي علي شيء من أمرك، اللهمَّ فأنا استعين بك عليه يا رب فإنه لا طاقة لي به ولا حول ولا قوة لي عليه إلا بك يا رب، اللهمَّ إن أرادني فارده وإن كادني فكده، واكفني شره واجعل كيده في نحره برحمتك يا أرحم الراحمين وصلي الله علي محمد وآله الطاهرين).

وأوضح منه أمرُ الله نبيه(صلي الله عليه و آله) الاستعاذة من الشيطان الرجيم((1)).

وأما غير المعصوم فربما تن-زلق قدمه فيتمكن إبليس من إغوائه، وربما ينحرف عن الدين أو عن التقوي أو يحدث منه التهاون والتقصير في التوجه إلي الله سبحانه والشكر علي نعمائه فينسي أو يغفل أو يتعمد في ترك الاستعاذة بالله والاستعانة به علي اللعين، بل قد تصل به الحالة إلي الاستجابة لدواعي الشهوة والانخداع بوعود الشيطان التي تبرز علي صفحة عقله من خلال نفسه الشهوانية

1- -- كما في سورة الأعراف/200، وسورة النحل/98، وسورة فصلت/36 وغيرها.

والإمّارة بالسوء، أعاذنا الله سبحانه من مكائده وأعاننا علي التخلص منها ومنحنا قوةً علي تحمل الشدائد إنَّه ولي حميد.

وينبغي أن نلتفت إلي نقطتين:

إحداهما:- ما أشرنا إليه مِن إن الشيطان عدوٌ لبني آدم كما قال الله سبحانه: «يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ»((1)).

وقال سبحانه حكاية عن قول موسي بن عمران(عليه السلام): «قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ»((2))، وقال تعالي: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً»((3))، وقال تعالي: «وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ»((4)).

ومن مقتضي طبع العدو انه يكره ما ينفع عدوه ويميل إلي ما يضره وهو مبدأ الحسد ومنطلق هذا المرض، والتعبير عن الشيطان بالمُضل أو توعده بأنه سوف يضل العباد ليس يعني إن الضلال يقع حتماً، بل معناه إنه وأتباعه يسعون في إضلال الناس فينجحون في بعض العباد ولا يتمكنون من بعض آخر ولكن يتمكنون من إيذاء الكل مثل قوله تعالي: «وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا

1- -- سورة طه/117.

2- -- سورة القصص/15.

3- -- سورة فاطر/6.

4- -- سورة الزخرف/62.

تَعْقِلُونَ»([1](#)) ، فعليه معني قول اللعين – الذي حكاه عنه القرآن –«وَلأضِلَّنَّهُمْ وَلأمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً»([2](#)) والاستثناء في قوله «ولأغوينهم أجمعين، إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ»([3](#)) ليس استثناءاً عما يفعله بل استثناء عما يصل إليه اللعين، فسعي اللعين لإضلال الكل بكل ما يتمكن جارٍ في الكل كما يقتضيه قوله سبحانه: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّي أَلْقَي الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»([4](#)).

وفي هذا السياق يأتي قوله سبحانه: «وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ»([5](#))، وقوله سبحانه: «فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»([6](#))، وقوله سبحانه: «وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ

1- -- سورة يس/62.

2- -- سورة النساء/119.

3- -- سورة الحجر/40.

4- -- سورة الحج/52.

5- -- سورة الأعراف/200.

6- -- سورة النحل/98.

هَمَزَاتِ((1))الشَّيَاطِينِ»((2))، وقوله تعـالي: «قُـلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ»((3))، وقوله تعـالي: «قُـلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ»((4))، وفي هـذا القالب يصب مـا جـاء حكايـة لقول نبي الله يوسف(عليه السـلام) «وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَـدْوِ مِنْ بَعْـدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي»((5))، وقوله تعالي: «وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً»((6)).

وبهذا القالب يصب كل ما جاء في أدعية المعصومين(عليهم السـلام) مثل ما جاء في دعاء الإمام السـجاد(عليه السلام) يوم الأحد (وأعوذ بك يا رب من همزات الشياطين واحترز بسلطانك من جور السلاطين).

ثانيهما: إنَّه ورد في الروايات إن الشـيطان يؤذي المعصومين(عليهم السلام) بمحاولاته عرقلة سير عملهم في هداية الناس ويسعي في عرقلة عبادتهم لله سبحانه وتعالي، فهو وإن كان يعجز عن الوصول إلي غايته إلا انه بمحاولاته يتمكن بنفسه أو

1- -- الهمز: الضغط والعصر وهمز الإنسان اغتيابه.

2- -- سورة المؤمنون/97.

3- -- سورة الفلق/1.

4- -- سورة الناس/1.

5- -- سورة يوسف/100.

6- -- سورة الإسراء/53.

بـأعوانه من الجن والإنـس ولوازم الحياة الدنيويـة من إيـذاء المعصومين(عليهم السـلام)، ففي مناجاة الزاهـدين للإمام زين العابـدين(عليه السـلام) (إلهي أسـكنتنا داراً حفرت لنا حفر مكرها، وعلقتنا بأيدي المنايا في حبائل غدرها، فإليك نلتجئ من مكائد خدعها، وبك نعتصـم من الاغترار بزخارف زينتها، فإنّها المهلكة طلابها، المتلفة حلاّلها، المحشوة بالآفات، المشحونة بالنكبات) فهو(عليه السلام) رغم تألمه من تقيـده بعـالم الناسوت يسـتعين بالله سـبحانه للتغلب علي مقتضـيات هـذا العالم اعترافاً منه بإمكانه الـذاتي الملازم للاحتياج إلي واجب الوجود.

ويضاف إليه ما في الروايات، ففي معتبرة هشام بن سالم عن أبي عبـد الله(عليه السـلام) قال: إن اشد الناس بلاءاً الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الأمثل فالأمثل((1))، وبمضمونها روايات متضافرة.

وروي أبو حمزة الثمالي عن أبي عبـد الله الصادق(عليه السـلام) قال: قال رسول الله(صـلي الله عليه و آله): إن الله اخذ ميثاق المؤمن علي بلايا أربع أيسرها عليه مؤمن يقول بقوله يحسده، أو منافق يقفو أثره، أو شيطان يغويه، أو كافر يري جهاده، فما بقي للمؤمن بعد هذا((2)).

1- -- أصول الكافي ج2 ص252.

2- -- أصول الكافي ج2 ص246.

وروي عبد الله بن سنان عن أبي الله الصادق(عليه السلام) قال: ما مِن مؤمن إلا وقد وكل به أربعة، شيطاناً يغويه يريد أن يضله، وكافراً يقاتله، ومؤمناً يحسده وهو أشدهم عليه، ومنافقاً يتبع عثراته((1)).

وروي في الكافي عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام) قال: إن الله عز وجل يبتلي المؤمن بكل بلية ويُميتَه بكل ميتة ولا يبتليه بذهاب عقله، أما تري أيوب كيف سُلِّط إبليس علي ماله وعلي ولده وعلي أهله وعلي كل شيء منه ولم يُسلَّط علي عقله تُرِكَ له لِيُوحِدِ الله به((2)).

ومن ذلك أيضاً معتبرة ابن مسكان عن أبي عبد الله الصادق(عليهم السلام) قال: ما أفلتَ المؤمن من واحدة من ثلاث أحداث ولربما اجتمعت الثلاث عليه، أما بغض مَن يكون معه في الدار يغلق عليه بابه يؤذيه، أو جار يؤذيه، أو مَن في طريقه علي حوائجه يؤذيه، ولو إن مؤمناً علي قلة جبل لبعث الله((3)) عز وجل شيطاناً يؤذيه ويجعل الله له من إيمانه انساً لا يستوحش معه إلي احد((4)).

1-- البحار ج 65 ص 222 ح 12.
2-- أصول الكافي ج2 باب شدة ابتلاء المؤمن ص 256 ح22.
3-- يعني انه يفتح المجال للشيطان ليصل إلي المؤمن يقصد إيذاءه.
4-- أصول الكافي ج 2 ص249-- 250

وقد روي أن جبرائيل(عليه السلام) عَوَّذَ بالمعوذتين رسول الله(صلي الله عليه و آله) حين وعك((1)).

وروي أن أم النبي (صلي الله عليه وآله وعليها) عَوَّذَت النبي(صلي الله عليه و آله) بأمر الهاتف الغيبي حين الولادة (أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، وكل خلق مارد يأخذ بالمراصد في طرق الموارد من قائم وقاعد)((2)).

وتعويذ رسول الله(صلي الله عليه و آله) للحسنين (صلوات الله عليهما) بقوله (أعيذكما بكلمات الله التامات من كل شيطان وهامّة ومن كل عين لامّة)((3)).

فتحصل إن عدو الصالحين إبليسَ وأعوانه يسعون في إغواء الكل وربما ين-زلق إلي مخالبه البعض، والذي مُنِحَ قوةً تُفيده الحماية لا يقدر عليه ولكنه يؤذيه كما تسلط شياطين الأنس والجن علي عباد الله الصالحين فَقُتِّلوا تقتيلاً وشُرِّدوا تَشريداً ومُزِّقوا تَمزيقاً، فشكوي المعصومين إلي الله سبحانه من الشيطان من جهة ما يلاقون منه ومن أعوانه من الأذي ومحاولتهم لعرقلة مسيرتهم فليس في هذا ما ينافي العصمة.

ص: 126

1- -- مستدرك سفينة البحار ج7 ص476.

2- -- بحار الأنوار ج15 ص271.

3- -- بحار الأنوار ج43 ص 282 وج 62 ص277، وج 63 ص18.

تنبيه

أفاد العلماء (رضوان الله عليهم) لتسليط الشيطان والكفار علي المؤمن وجوهاً مِن الحكمة:

منها: إنَّه كفارةٌ لذنوبه.

ومنها: إنَّه لاختبار صبره وإدراجه في الصابرين.

ومنها: لتزهيده في الدنيا لئلا يُفتَتَن بها ويطمئن إليها فَيَشُقُ عليه الخروج منها.

وهذه الوجوه تتلاءم مع غير المعصومين.

ومنها: توسله إلي الحق سبحانه في الضراء وسلوكه مسلك الدعاء لدفع ما يصيبه من البلايا وترتفع بذلك درجته.

ومنها: وحشته من المخلوقين وأنسه برب العالمين كما جاء في وصف علي بن أبي طالب(عليه السلام) علي لسان ضرار بن ضمرة الليثي (يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته، كان غزير العبرة طويل الفكرة، يُقَلِّبُ كفيِّهِ ويخاطب نفسه ويناجي ربه)((1)).

وهذه الوجوه في مرآة العقول للمجلسي(رضي الله عنه) الجزء الثاني ص222.

والوجهان الأخيران يعمان المعصوم وغيره.

ص: 127

1- -- بحار الأنوار ج 42 ص 282 ص 61 ص 277.

وهناك وجه آخر وهو إن نفوس أفراد البشر في أول الفطرة ناقصة بالقوة ومع ذلك بعضها خيرة نورانية شريفة بالقوة مائلة علي الأمور القدسية عظيمة الرغبة إلي الآخرة، وبعضها خسيسة الجواهر ظلمانية شريرة بالقوة مائلة علي الجسمانيات عظيمة في إيثار الشهوة والغضب، فلو لم يكن الإغواء ولا طاعة النفس والهوي لكان ذلك منافياً للحكمة لبقائهم علي طبقة واحدة من نفوس سليمة ساذجة فلا تتمشي عمارة الدنيا بعدم النفوس الجاسية([1]) الغلاظ العمالة في الأرض لأغراض دنية عاجلة، ألا تري ما روي من قوله تعالي في الحديث القدسي (إني جعلت معصية آدم سبباً لعمارة العالم)([2])،

وما روي في الخبر: (لولا أنكم تُذنِبون لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون)([3]).

وهذا الوجه الأخير اختاره صدر المتألهين(رضي الله عنه) في تفسير القرآن الجزء السادس ص92- ص95 ولخصه في رياض السالكين السيد علي خان الحسيني(رضي الله عنه) في الجزء الثالث ص185، ولكن هذا الوجه يخص غير المعصومين مع انه فيه ما فيه.

ص: 128

1- -- جسا الشيء يجسو إذا يبس وصلب، المصباح المنير خ 140.
2- -- تفسير ملا صدرا ج 6 ص 94.
3- -- المصدر السابق.

والأقرب – والله العالم – إن المعصوم بما له من الموهوب والمكتسب وثباته مع شدة حنق عدو الله عليهم وعلي إيذائهم رفعة لهم ومصدر هداية للمهتدين وحجة علي الضالين.

وتوضيحه إن وجود المعصومين وعناصرهم وكل ما يصدر منهم وكل الصفات التي تحل فيهم هبةٌ مِن الله سبحانه أو يكتسبونها بمقتضي استمرارهم في الرقي في سلم التقرب الإلهي كل ذلك تشريف لهم ومصدر هداية و إرشاد و إنارة للطريق إلي الله سبحانه للمخلوقين، ومعلوم أيضاً إن عداوة الشيطان الرجيم لبني آدم تبعثه إلي شدة غيظه وحنقه علي الصالحين مِن أولاد آدم(عليه السلام) ويستجلب خيله ورجله وجميع طاقاته وأعوانه لإيذاء قادة الصالحين باعتبارهم مصدر الإشعاع للعالم في ظلمات الدنيا الدنية إلي الآخرة، ولِعِلْمِ اللعين بأنه لولا هؤلاء المقربون لَضَلَّت البشرية عن جادة الصواب وأصبحت كلها حصب جهنم، ولذلك يستجمع قواه في إيذاء هؤلاء وعرقلة جهودهم، فإذا رأي الناس ثبات أولياء الله سبحانه علي جادة الصواب وعدم انصياعهم لدواعي الهوي ومشتهيات النفس وعدم انخداعهم بغرور الشيطان ومضلاته وعدم تعلقهم بالدنيا وعدم افتتانهم بزهرتها وزبرجها كان ذلك لسائر عباد الله من بني آدم أدعي إلي التمسك بطريق الله سبحانه وأقوي حجة عليهم وأوضح مسلك لهم فيصبح كل معصوم بل كل حركة وسكون ولحظة عيون منه

علامات يهتـدي بها الضالون ونصب للهدايـة، فابتلاء هؤلاء خير لهم ليسـتمروا في التقرب والرقي إلي المعارج العالية في مدارج العبودية التي لا نهايـة لأمدها أو عددها ويسـتنير بهداهم البشـر حال حياتهم الظاهرية وبتذكر سـلوكهم بعد رحيلهم عن الدنيا، بل دُعيَ الناسُ إلي الوقوف علي أضـرحتهم ليتذكروا ضمن ألفاظ الزيارات المروية ليستمدوا منها النور كما جاء في بعض الزيارات: (اشهد انك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة، لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها، ولـم تلبسك من مدلهمات ثيابها، واشهد انك من دعائم الدين وأركان المؤمنين)((1)).

وكـذلك ما جاء في زيارة أمير المؤمنين(عليه السـلام) مِن ذكر صـلابته في التمسك بالحق: (عَبَـدتَ الله مخلصاً، وجاهدت في الله صابراً، وجُدت بنفسك محتسباً، وعَمِلت بكتابه، واتبعتَ سُنةَ نبيه، وأقمتَ الصلاةَ، وآتيتَ الزكاة، وأمرتَ بالمعروف ونهيتَ عن المنكر ما استطعتَ مُبتغياً ما عند الله راغباً فيما وعد الله، لا تحفل بالنوائب، ولا تحجم عن محارب..) وغيرها من الفقرات في الزيارة الغديرية.

والملخص إن مسعي الشيطان في إيذاء أولياء الله المعصومين أشد وابتلاؤهم به أقوي وأَمَرُّ وصبرهم علي طريق الله سبحانه أعظم،

ص: 130

1- -- مقطع من زيارة الإمام الحسين(عليه السلام) (زيارة وارث).

وهذا مصدر للخير لهم ومشعل هداية لمن يهتدي وحجة علي من يُقَصِّر في الاستفادة بنور هداهم.

المنشأ الثاني

اعترافه (عليه السلام) بارتكابه للمعاصي بجوارحه وأعضائه كلها.

التأمل في معني المعصية ومصاديقها يكشف إنها تنحل إلي عنصرين أساسيين:-

احدهما: الخروج من طاعة المولي خروجاً مطلقاً أو خروجاً بمعني أنه - أي المرتكب لها - لا يحصل في مقام التقرب الإلهي علي ما يرنو إليه ويطمع فيه.

ثانيهما: ان المعصية تعرقل مسيرة العبد في مدارج التقرب الإلهي ومعارج سلم الرقي إلي مبدأ المبادئ، فإن من يبتلي بشيء من ذلك أي من العوائق يحسُّ بالعناء والمشقة أشد من العذاب الجسدي الذي قد يستحقه الإنسان لأجل خروجه عن طاعة الله سبحانه، فإن العذاب الروحي أشد وطءاً وأصعب تحملاً من العذاب الجسدي، ومن هنا كان قول النبي الأعظم (صلي الله عليه و آله) في مقام المقارنة بين ما لاقي من أعدائه وبين ما لاقاه الأنبياء السابقون: (ما أوذي نبيٌ بمثل ما أوذيت

به)([(1)](#content_note_137_1))مع انه من المعلوم إن هناك أنبياء قد نُشِروا بالمناشير وقُتِّلوا تَقتيلاً وما ذلك إلا لأن المصاب الذي تحمله النبي الأعظم (صلي الله عليه و آله) كـان ثِقَّـل وطـأته علي روحه المقدسـة وأمـا المصائب التي تحملها الأنبياء السابقون كلها أو جلها فكانت جسديـة، وإلي هـذا المعني يُشير قول أمير المؤمنين (سلام الله عليه) في الدعاء الذي عَلَّمَه تلميذه كميل بن زياد (هبني صبرت علي حر نارك فكيف أصبر علي فراقك)، فالمعاناة التي يتحسسها العبد من عرقلة مسيرته من هذا العنصر أشد.

إن أرواح المعصومين (سـلام الله عليهم) ونفوسـهم الطاهرة حيث إنها متميزة عن نفوس سائر العباد من جهة ارتقائها التكويني وعلو شأنها وأنها خلقت من نور العظمـة كان نزولها إلي الـدنيا وارتباطها بأجسامهم العنصـرية باقتضاء الحكمـة الإلهيـة لتكون أنوار الهـدي وشموسـاً يهتـدي بهـا الأ ـمم في ظلمـة المادة والماديات، وإلي هـذا يرمز ما روي عن الإمام الصادق(عليه السـلام): (والله لولا إنَّ الله فرضَ ولايتنا ومودتنـا وقرابتنا ما أدخلناكم بيوتنا ولا أوقفناكم علي أبوابنا)([(2)](#content_note_137_2))، كلُ ذلك كان موجباً لبعدهم عن الوطن الأصـلي فيما فوق الملأ الأعلي ونزولهم عن حظيرة القدس، لأن نفوسهم كانت متعلقة بالعرش

1- -- البحار ج 39 ص 55، وكشف الغمة ج 2 ص 537.
2- -- بصائر الدرجات ص 300 ح 5 و 7 و 10، والبحار ج2 باب إنهم: مواد العلم وأصوله ص 173 ح 5.

الإلهي محظوظـة في تلك الحظيرة عائشـة في جواره المعنوي ومرتقية علي الدوام بالعبادة والتسبيح والتقديس للمبدأ الأعلي فنزولهم ارتبط بالوعـد بعودهم إلي نفس المقام السامي مع زيادة المحظوظيـة لأجل ما يتحملونه في سبيل هدايـة البشـر، فارتبطت تلك النفوس بالأجساد العنصـرية فكان هذا الارتباط وما يلحقه مِمّا لابدَّ منه للعيش في هذه الدنيا من إحساس بمقتضيات الطبيعة من الحاجة إلي الأكل والشرب والنوم والأـلم والجوع والعطش والوقـاع، فهـذا الارتباط وما يتبعه من تقيّـدهـم بالجوارح والأعضاء كل ذلك عوائق وموانع وحواجز عن عودة تلك النفوس إلي موطنهم الأصلي، وإلي هذا أشار أمير المؤمنين(عليه السلام) بقوله في خطبته في وصف المتقين: (ولولا الأجل الذي قُدِّرَ لهم ما استقرت أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلي اللقاء)((1)).

فكل ما هو من لوازم هذا الجسد من الجوارح والأعضاء وحركاتها وسكناتها رغم كونها في إطار الشريعة الغراء تعتبر حواجز وموانع، فكل ما يصـدر من الجوارح باعتباره من لوازم العوائق بل هي العوائق رغم كونها موجبة لعلو الدرجات وسـمو المقامات لاسـتلزامها التألم الروحي بتأخرهم لأجلها عن سرعة العود

1- -- نهج البلاغة الخطبة رقم (188) في صفات المتقين.

لأنها ناشئة من الارتباط بالعالم السفلي الدنيوي، كلها يُعبَّر عنها بالمعاصي رغم أنها مسبوكة في قوالب الشريعة الإلهية لاقتضائها أعظم وأهم عنصر في كيان ما يُسمي بالمعصية فيُطلَق عليها المعصية.

وبهذا الملاك كانت الأفعال التي هي رغم كونها في حدود التقيّد بالشريعة أطلق عليها لفظ الذنوب فإن الذنب (في الأصل الأخذ بذنب الشيء، يقال ذنبته أصبت ذنبه، ويُستعمل في كل فعل يستوخم عقباه اعتباراً بذنب الشيء، ولهذا يسمي الذنب تبعة اعتباراً لما يحصل من عاقبته)(1)، فكان كل ما يصدر من المعصومين ممّا عَدّوه من الذنوب إنما هو باعتبار ما قلناه لأنه يقتضي الإحساس بالبُعد وأن هذه الأمور تؤخرهم عن مقصدهم وهو العود إلي موطنهم الأصلي، ولأجل ذلك يقول سيد الشهداء(عليه السلام) في دعاء عرفة (إلهي أمرتَ بالرجوع إلي الآثار فأرجعني إليكَ بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار، حتي ارجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السِّر عن النظر إليها ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها أنك علي كل شيء قدير، إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفي عليك، منك أطلب الوصول إليك، وبك استدل عليك، فأهدني

1- -- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني مادة (ذ. ن. ب).

بنورك إليك، واقمني بصدق العبودية بين يديك)، وجاء في فقرة أخري منه (إلهي إن القضاء والقدر يمنيني، وإن الهوي بوثاقة الشـهوة أسرني، فكن أنتَ النصيرَ لي حتي تنصرني وتبصرني).

وهكذا إطلاق الإثم علي كل ما يعوق مسيرة المعصوم إلي موطنه الأصلي، والإثم هو اسم للأفعال المبطئة عن الثواب، قال الشاعر:

جمالية تغتلي بالروادف

إذا كذب الآثمات الهجيرا((1))

وبهذا اللحاظ أطلق العصيان، فهو وإن كان مدلوله المطابقي الخروج عن الطاعة ولكن كما قلنا إن المعصية تحتوي علي عنصرين: احدهما ما يمنع من الوصول إلي الغاية العليا أو يحول دون سرعة الوصول وهذا ما عرفتَه آنفاً.

والآخر ينحل إلي معنيين:

احدهما: الخروج عن الطاعة والتمرد علي المولي دائماً أو مؤقتاً وهذا الذي يُنافي العصمة.

وثانيهما: ما يقتضي عدم الحصول علي ما يرنو إليه في مقام التقرب الإلهي وهو المعبَّر عنه في كلماتهم بترك الأولي، وهذا هو

1-- المفردات للراغب الأصفهاني مادة (أ. ث. م)

الـذي نسب صـدوره إلي بعض الأنبيـاء السـابقين(عليهم السـلام) علي مِثل ما قيل فيما صـدر عن داوود(عليه السـلام) لما تسوّر الملكان المحراب عليه، أو فيمـا فُسِّر به ما صـدر عن أبينا آدم(عليه السـلام)، وبه عُلِّلَ دعاء بعض الأنبياء علي أقوامهم إذ الأولي في حق النبي الصبر علي غرار صبر الرسول (صلي الله عليه و آله) والأئمة الطاهرين(عليهم السلام)((1)).

المنشأ الثالث

اشارة

وفيه نقاط:

الأولي توبة المعصومين(عليهم السلام)

والـذي نفهمه في هـذا الشأن إن التوبة هي الرجوع كما تقدم، وابتلاء المعصومين(عليهم السـلام) بالدنيا وأهلها من جهةٍ وارتباط نفوسـهم وأرواحهم الطاهرة بالأجساد العنصرية من جهةٍ أخري يُحسِّسَهم بالابتعاد عن مقرهم وموطنهم الأصلي حظيرة القدس ضمن الملأ الأعلي، فيتضرعون إلي الله سبحانه ليعينهم علي سرعة التخلص من

1- -- وأما شـيخنا الأسـتاذ المفدي (دام فيضه) فقد بين في المباحث المتعلقة بالآيات التي استدل بها علي عدم العصمة انه لم يصدر من آدم وغيره من الأنبياء ما يعبر عنه بترك الأولي والذي يرشد إلي ذلك الحصول علي الدرجات عقب صدور ما يعبر عنه بترك الأولي.

هـذه الارتباطات ومقتضـياتها ولوازمها المسـببة لهم الآلام النفسانيـة المبرحـة لشدة اشتياقهم إلي ما وعدهم الله سـبحانه به من العود إلي أماكنهم مع زيادة التفضل ورفع الدرجات.

النقطة الثانية طلب المغفرة بجد

ينبغي أن نعلم إن الغفر هو السـتر، وهو يتحقق بغض النظر عن النقص والعيب كمـا يتحقق بـإزالته، واعتُبِر الـذنب نقصـاً لأجـل انه يوجب الانحطـاط لمرتكبه، فكـل ما يعتبره الإنسان أو يعتبر في حقه نقصاً فهو ذنب، فطلب الغفران يُعتبر مطلباً عقلانياً مفروضاً بمقتضـي الحكمة من كل مهذب النفس.

والمعصومون(عليهم السـلام) يعتبرون ارتباطاتهم بالدنيا ولوازمها وارتباطهم بالجسد العنصري وما يستلزم ذلك الارتباط من لزوم الحاجة إلي ما يقتضـيه هـذا الجسـد من المباحات، يعتبرون كل ذلك نقصاً عكس ما يتخيله من غشـي بصـره بمباهـج الدنيا الخلابة وهو كالبهيمة المربوطة همها علفها أو المرسلة شغلها تقممها.

وأما أهل الله وآله المصـطفون الأبرار فيعتبرون سكناهم في هذه الدنيا بما فيها وعليها ومنها مصدر إحساس بالنقص يتألمون منها ويطلبون الراحة في الخلوات مع الله سبحانه والمناجاة معه، فقد روي

انه(صلي الله عليه و آله) ربما يقول لمؤذنه بلال (أرحنا يا بلال)، أو قول سيد الأوصياء(عليه السلام) حين استشهاد عمار(رضوان الله عليه):

ألا أيها الموت الذي ليس تاركي

ارحني فقد أوديت كل خليلي

أراك بصيراً بالذين أحبهم

كأنك تنحو نحوهم بدليل

ويكشف عن شدة تألمه من الدنيا وما فيها قوله(عليه السـلام): (إليكِ عني يا دنيا، فحبلُكِ علي غاربكِ، قد انسـللتُ مِن مخالبكِ، وأفلتُ من حبائلـكِ، واجتنبتُ الـذهاب إلي مـداحضك، أين القوم الـذين غَرَرْتِهم بمـداعبك، أين الأـمم الـذين فتنتِهم بزخارفكِ، هاهم رهائن القبور ومضـامين اللحود، واللهِ لو كُنتِ شـخصاً مرئيـاً وقالبـاً حسِّياً لأقمتُ عليكِ حـدودَ الله في عبادٍ غَررتِهم بالأماني وأممٍ ألقيتِهم في المهاوي وملوكٍ أسـلمتِهم إلي التلف ومواردَ البلاء إذ لا ورد ولا صدر...) إلي أن يقول(عليه السـلام): (اغربي عني فو الله لا أذلُ لك فتستذليني، ولا أسلس لك فتقودني، وأيم الله يميناً أستثني فيها بمشيئة الله لأروضن نفسي رياضة تَهِشُ معها إلي القرص..)((1))

إلي آخر كلامه(عليه السلام).

1- -- نهج البلاغة، مقطع من كتابه(عليه السلام) إلي واليه علي البصرة عثمان بن حنيف، رقم الكتاب45.

وتألّم المعصومين من الدنيا وتوبتهم عبارة عن الرغبة الملحة والشوق الشديد الأكيد في الرجوع إلي موطنهم الأصلي والتخلص السريع من العوائق، ولعله إليه يُشير ما روي عن الإمام الصادق(عليه السلام) في مصباح الشريعة المنسوب إلي الإمام الصادق(عليه السلام) حيث قال: التوبـة حبلُ الله ومـدد عنايته، ولابد للعبد من مداومة التوبة علي كل حال، وكل فرقة من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبياء من اضـطراب السِّر، وتوبة الأولياء من تلوين الخطرات، وتوبة الأصفياء من التنفيس((1)).

والظاهر إن المقصود من اضـطراب السـر اضـطراب الروح الذي يتململ ويضـطرب حنيناً إلي حظيرة القدس ناشـئاً من ضـغط وثقل تعلق الروح بعالم الكون والفساد واضطرارهم إلي المباحات كما تقدمت الإشارة إليه.

والظاهر إن المقصود من التنفيس إن الأصفياء لارتباط أرواحهم بالأجساد يحسون الحاجة إلي راحة الجسد التي هي من مقتضياته.

والمقصود من تلوين الخطرات هي الأـمور التي يفتقر إليهـا أجسـاد الأوليـاء ويلازم تلك الأجساد خطور ما يفتقر إليه الجسـد من المأكل والمشرب والوقاية من الحر والبرد والتألم بما يؤلم والتحسس بالراحة يتبع راحة الجسد.

1- -- مصباح الشريعة الباب الرابع والأربعون (في التوبة).

وتألّم غيرهم علي الدنيا لتعلق قلوبهم بها فيقع في المهاوي والمهالك وإن شملته الرحمة واحتضنه التوفيق فيؤوب إلي الطاعة مستعيناً بالله علي التخلص من مخالب أعماله التي احتطبها علي ظهره لتعلقه بالدنيا وانزلاقه إلي ملذاتها، ولعله إليه يشير القول المنسوب إلي الإمام الصادق(عليه السلام): وتوبة العامة من الذنوب((1)).

واعلم إن بين الأنبياء والأولياء والأصفياء من جهة وبين العوام من جهة أخري طائفة يعبر عنها بالخواص وتوبتهم من الاشتغال بغير الله، بمعني اشتغالهم ببعض المباحات بقصد التلذذ المباح بها.

النقطة الثالثة

استجابة الله تعالي لطلب التائب يختلف حسب اختلاف حالاته ومقامه، فالمذنب التائب توبة الله عليه أما بستر عيبه إلي أن يحين وقت المؤاخذة والمعاقبة أو بمحوه، وأما توبته تعالي وغفره لأوليائه المعصومين فبإفاضاته عليهم بعوالي المقامات وبفتح الطرق إلي المعالي ليزيح بذلك الإحساس بالألم لديهم(عليهم السلام) بابتلائهم بالدنيا وأهلها وسكناهم مع مَن يستلذ بها ويسكن قلبه إليها وتطمع نفسه في الاستزادة منها.

1- -- المصدر السابق.

المنشأ الرابع

ينبغي أن نعلم أن ارتباط أرواح المعصومين علي اختلاف مراتبهم بأجسادهم الناسوتية ولوازمها بما إنها تبعدهم عن عالم التجرد قسراً وهم مع ذلك مأمورون بحماية أجسادهم عما لا يجوز تعريضها له وملزمون بتهيئة مستلزماتها وهي بمقتضي قناعتهم ارتباط بما لا يليق بمقام ذواتهم لأنه يعيقهم عن العبادة في عالم التجرد الذي يعتبر أرقي وأرفع درجة في مراقي التعبد يصيبهم الخوف من نار جهنم من جهة عدم تمكنهم من تلك الحالة التي يحصلون عليها في طرف تجردهم تحت ظلال عرش الرحمة وعدم تمكنهم من تلك العبادة لارتباطهم بالدنيا كما أشرنا إليه، فهذا المعني يخيفهم من نار جهنم ولذلك تجد في أدعية المعصومين(عليهم السلام) الاعتراف بالتقصير في العبادة والتوبة منها.

وبالجملة إن ابتعادهم القسري عن عالم التجرد الذي كانوا فيه محلقين بسمو مرتبة العبادة لأجل تقيدهم بعالم الناسوت ومتطلباته حتي أُمروا بطلب العافية في الأجساد ومنحه الرزق بأقسامه التي يفتقر إليها الجسد يوجب لهم التقيد بمرتبة دنيا من العبادة والتمتع بالعشق الإلهي بالقياس إلي ما كانوا عليه ويصيرون إليه بعد انفصال أرواحهم من الجسد من عالم التجرد الذي كانوا فيه كل ذلك يخلق لديهم الإحساس بالقصور بل بالتقصير في أداء حق العبادة والقيام

ص: 141

بحق ما يقتضيه الحب والعشق للمعبود، ومن هذا الإحساس بالتقصير يتولد لديهم الخوف من العقوبة ولذلك روي عن الإمام زين العابدين(عليه السلام) انه كان يعتبر عدم أدائه حق العبادة معصية مخيفة له.

والذي يشهد بأنهم(عليهم السلام) لا يرضون لأنفسهم بعبادتهم حالة تقيد أرواحهم بالأجساد لأنها دون ما يريدون ويتمنون قول الإمام زين العابدين (سلام الله عليه): (إلهي لولا الواجب من قبول أمرك لنَزَّهتُكَ عن ذكري إياكَ، علي أن ذكري لكَ بقدري لا بقدركَ، وما عسي أن تبلغ مقداري حتي أُجعَل مَحلاً لتقديسك...)((1)) إلي آخر كلامه(عليه السلام).

إن قلتَ إن كان ارتباط المعصومين بالأجساد الناسوتية قسرياً وكان التقيّد بمستلزمات السكني في هذا العالم عالم الكون والفساد مرتبطاً بالإرادة التكوينية الإلهية وهم يفعلون مبلغ مقدورهم ضمن ما يطيقون من العبادة فمن أين يأتي الإحساس بالتقصير؟

نقول حينما ينظر المعصوم إلي الفارق والبعد الشاسع بين ما كان عليه من العبادة حال تجرده وبين ما هو عليه من العبادة حال تقيده بهذا العالم ومستلزماته فهذا الفارق يجعله يتحسر علي ما لا يفعله، وحينما يري نزاهة الله تعالي عن كل قبيح وانه سبحانه لم يربطه بهذا

1- -- قطعة من مناجاة الذاكرين، انظر كتب الأدعية ومنها مفاتيح الجنان.

العالم ليبعده بل ليمهد له سبيل الفوز إلي مراتب علياً فوق ما كان عليه قبل الارتباط ويري أن الله سبحانه لم يسلب منه القدرة علي العبادة بأعلي المراتب يتولد لديه الإحساس بأن عدم الوصول إلي تلك المرتبة من العبادة يرجع إليه لا إلي الله سبحانه، ولأن نفس الاعتذار من العبد أمام المولي من عدم الوصول إلي المرتبة العليا من الطاعة يُعد اعترافاً بالتقصير.

المنشأ الخامس

وهو الاعتراف بالمعصية ضمن التجاوز والاعتداء علي الآخرين من عباد الله وذلك مثل ما جاء في دعاء يوم الاثنين (اللهمَّ إني أستغفرك لكل نذرٍ نذرتُهُ، وكل وعدٍ وعدتُهُ، وكل عهدٍ عاهدتُهُ ثم لم أفِ به، وأسألُكَ في مظالم عبادك عندي فأيما عبدٍ من عبيدكَ أو أمةٍ من إمائِكَ كانت له قِبلي مظلمةٌ ظلمتُها إياه في نفسه أو في عرضه أو في ماله أو في أهله وولده أو غيبة اغتبته بها أو تحامل عليه بميل أو هوي أو أنفة أو حمية أو رياء أو عصبية غائباً كان أو شاهداً حياً كان أو ميتاً وقَصَّرَت يدي عن ردها إليه والتحلّل مِنه، فأسألُكَ يا من يملكُ الحاجات وهي مستجيبة لمشيئتك ومسرعة إلي إرادتك أن تصلي علي محمد وآل محمد وان ترضيه عني بما شئت...) إلي آخر الدعاء.

ص: 143

لا يخفي إن لفظة العبـد ليس يخص الإنسان والجن والملائكة بل يعم جميع الحيوانات كما في قوله سـبحانه: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ»((1))، بل جميع الكائنات بما فيها النبات والجماد يشـمله عنوان العباد كما في قوله عز مِن قائل: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ»((2))، وقد تقرر نسـبة التسبيح إلي ما في السـموات والأرض بل إلي نفس السموات والأرض قـال(عزوجـل): «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَي السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ»((3))، ولعل قوله سبحانه: «وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ»((4)) أوضح دلالة علي المقصود لتضمنها المؤاخذة، ويدل عليه ما جاء في معتبرة معاوية بن عمار أنه أُتيَ أبو عبد الله(عليه السـلام) فقيل له: إن سبعاً من سباع الطير علي الكعبة ليس يمرُّ به شيءٌ من حمام الحرم إلا ضربَهُ، فقال: فانصبوا له واقتلوه فإنَّه قد ألحد((5)).

1- -- سورة الأنعام/38

2- -- سورة الإسراء/44.

3- -- سورة فصلت/11.

4- -- سورة التكوير/5.

5- -- الكافي ج 4 باب الإلحاد بمكة.. ص 227 ح 1.

وكذلك ما روي عبد الله بن ميمون عن جعفر بن محمد عن أبيه (عليهما السلام) قال: قال يعقوب لأبنه يوسف(عليه السلام): (يا بني لا تزنِ فـإن الطير لو زني لتناثر ريشه)((1))، و إخضاع الله سـبحانه الطيور وغيرها طاعة لنبيه سـليمان(عليه السلام) شاهدٌ علي ذلك أيضاً قال الله سبحانه: «وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ»((2))، وقال تبارك وتعالي: «وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ»((3))، وما روي عن الإمام زين العابدين(عليه السلام) أنه ربما رَفع درته ليعاقب ناقته علي تقصيرها في المشي ثم يمتنع قائلاً (آه لولا القصاص)((4)) مِمّا يعني أنه يجب علي الإنسان أن يستعد للمحاسبة علي تعـدِّيهِ علي أيِّ موجود في العالم وكل تصرف في شـيءٍ من الكائنات خارج عن الإطار المسـموح به شـرعاً يُعتبَر تعدّياً وظُلماً، ولعل إليه يشير ما روي في منع التبول في الماء الراكد معلَّلاً بأن له أهلاً يتأذون، فالتعبير المروي عن الإمام (سلام الله عليه) في الفقرة التي تقدمت

1- -- من لا يحضره الفقيه ج4 بـاب ما جاء في الزنا ص13 ح4، وكـذلك في الكافي ج5 باب الزاني ص542 ح8، والمحاسن للبرقي (كتاب عقاب الأعمال) ح 92.

2- -- سورة النمل/17.

3- -- سورة ص: آية 19.

4- -- البحار ج 46 باب مكارم أخلاق الإمام السجاد(عليه السلام).. ص 76 ح69 وص91 ح 78، ومستدرك الوسائل ج 18 باب نوادر ما يتعلق بأبواب القصاص ص 289 ح5.

الإشارة إليها تعم كل ما أشرنا إليه (ربنا اكنفنا برحمتك واجعل حياتنا كما تقتضيه حكمتك).

ومما جاء في هذا المعني في الأدعية قول الإمام السجاد(عليه السلام) في الدعاء الموسوم بمكارم الأخلاق: (اللهمَّ اجعل ما يلقي الشيطان في روعي من التمني والتظني والحسد ذكراً لعظمتك، وتفكراً في قدرتك، وتدبيراً علي عدوك، وما أجري علي لساني من لفظة فحش أو هجر أو شتم عرض أو شهادة باطل أو اغتياب مؤمن غائب أو سب حاضر وما أشبه ذلك نُطقاً بالحمد لك).

فنقول: إن القضايا المتعارفة التي لا يُقيَّد المحكوم عليه فيها بالوجود الذهني محققاً أو مقدراً ولا بالوجود الخارجي كذلك فهي الحقيقية بقول مطلق، وهي حين التحليل تساوق الشرطية بمعني أنه لا يلاحظ فيها ولا ينظر إلي نحو تحقق الموضوع بل يكون الحكم فيها إن كل ما اتصف بالوصف العنواني علي تقدير وجوده في الخارج أو في الذهن فهو متصف بالمحمول علي ذلك التقدير، وعلي هذا تجري هذه القضايا التي جاءت في الكلمات المروية في أدعية المعصومين(عليهم السلام) فقوله(عليه السلام): (أيما عبد...) يعني لو تحقق الموضوع بهذا الوصف العنواني لكان المطلوب من الله سبحانه ما ذكر في فقرات الدعاء، ومعلوم أن القضايا الحقيقية لا تقتضي تحقق الموضوع واتصافه بالوصف العنواني بالفعل في أي ظرف من خارج

أو ذهن، وبهـذا يُفسَّر ما جاء في فقرات من دعاء أمير المؤمنين(عليه السـلام) الـذي علمه تلميـذه كميل بن زياد(رضـي الله عنه) مثل قوله: (اللهمَّ أغفر لي الـذنوب التي تهتك العصم، اللهمَّ أغفر لي الـذنوب التي تُغير النعم، اللهمَّ أغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء، اللهمَّ أغفر لي الـذنوب التي تُنزِل البلاء، اللهمَّ أغفر لي الـذنوب التي تقطع الرجـاء)، على أن هـذا الـدعاء خـارج عن محل البحث لأنه جاء في مقام التعليم كدعاء أبي حمزة الثمالي الذي تعلمه من الإمام السجاد(عليه السلام).

ص: 147

الموانع والحواجب عن التوبة

أعلم يـا أخي إن هنـاك موانع عديـدة وحواجب كثيرة تحول دون مبـادرة العبـد إلي التوبـة وتـدفعه إلي التخبط في حياته فينـدفع العبـد إلي المعصـية ويسـتمر في الغي والولوج في ظلامات الدنيا الدنية ثم يستمر حتي تفاجئه المنية فيتحسر ويكون مصداق قوله سبحانه: «ربِّ لولا أَخَّرْتَنِي إِلَي أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ - وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»((1))، وقد يتمادي المجرم في غيِّه وعدوانه علي نفسه وعلي خالقه ومولاه ويدوم في تمرده علي سيده ويموت موت فجأة فيكون من الخاسرين.

وهناك من أظنه أسوأ حالاً من هذين وهو الذي يتذكر التوبة ووجوبها وينتبه إلي طغيانه وغَيِّهِ ويلتفت إلي ما يجب أن يفعله في

1- -- سورة المنافقون/10, 11.

تحقيق نجاته ولكن يُسوّف التوبة، فإن من ذكرّ ثم سوَّف أقبح ممن استمر في غَيِّهِ ولم ينتبه إلي نفسه مع أن ذلك يكون مسبوقاً بالتذكرة بنحو من الأنحاء لئلا يكون لأحد حجة علي الله بل يكون له تعالي علي الجميع الحجة البالغة.

ونحن نشير في الذيل إلي بعض تلك الموانع والحواجب لعلنا جميعاً نلتفت إلي أنفسنا ونحاول التخلص من تلك الموانع ونسعي في التحرر من ظلمة تلك الحواجب، ومعلوم انه لم يكن لأحد ذلك ولن يكون لأحد إلا مع شمول رحمة الله سبحانه له ولعلنا نتذكر أو نخشي.

ومن تلك الأسباب والموانع:-

ضعف الإيمان بالله سبحانه ورسوله(صلي الله عليه و آله) وباليوم الآخر.

وهذا الضعف قد ينشأ من الاستمرار علي أكل الحرام ومِن حُبِّ الدنيا بحيث قد تصل الحال بالإنسان - نستجير بالله - علي أن يفرغ واقعه عن الإيمان بالكامل وهو وإن كان يَري نفسه من ضمن المسلمين أو المؤمنين لكن ليس للإيمان حتي الرائحة من وجودٍ في قلبه وتجده يستهزئ بالشعائر الدينية ويستهين برجالات الدين ويشكك في المعاجز والكرامات ولو كانت مروية بسند معتبر ويَعتبر كثيراً من الشعائر الدينية خرافات أو إنها ذهب وقتها أو إن هذه المشاعر تسبب التفرقة بين المسلمين، وقد تصل به

الحال إلي التشكيك في عصمة المعصومين(عليهم السلام)، نعم يُصرِّح بأن الأنبياء والأئمة(عليهم السلام) معصومون ومع ذلك يعتبرهم كسائر البشر في مقام الحديث عنهم، فمثلاً يدعو إلي تخفيف التعازي والمجالس الحسينية ويدعو إلي ترك البكاء وترك اللطم بحجة انه قد طال الزمن ولا يعلم أن هذه الأمور تشكل أساس بقاء الدين واستمرار الإسلام، ويستهين بالزيارات المخصوصة وغيرها بحجة إن الإمام في الجنة لا يستفيد بزيارتي، فمثل هذا الشخص لا يميل إلي الاستغفار لأنه في واقعه خالٍ عن الإيمان بالقيامة وإن كان يصلح انه قد تعوَّد عليها أو يخاف سقوط عنوانه وشخصيته في المجتمع، وهذا الصنف مِن المنافقين - في الواقع - لا يؤمن بالدعاء ولكن ربما يدعو ولا يفكر في الاستغفار والتوبة، وإلي مثل هؤلاء أشار قوله سبحانه: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ»((1))، وإلي حالتهم أشار قوله سبحانه: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَي قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ»((2)).

1- -- سورة المنافقون/5 , 6.

2- -- سورة المنافقون/3.

وأعلم يا أخي ان أمثال هؤلاء تجدهم في جميع المجتمعات الإسلامية حتي في ضمن الطائفة المُحِقة، وربما في زيِّ رجال الدين.

ومنها: تراكم الرّين علي القلب.

إذا توغل المكلف في المعاصي وأكل الحرام والمشتبهات ونبت علي ذلك لحمه واشتد عظمه فتضمحل الجهات النورانية في نفسه بسيئات أعماله وقد استمر علي ذلك رغم التحذيرات والإنذارات الإلهية والتذكير منه سبحانه في جميع منعطفات حياته ورغم التنبيه المستمر منه سبحانه وهو يتمادي في غَيِّهِ فيسوَّد قلبُه ويضعف منه روحُ الإيمان وإليه أشار قوله سبحانه: «كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَي قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ»((1))، وقوله سبحانه: «وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً»((2)).

وهؤلاء لا يفقدون أشباههم الذين يوافقونهم علي سلوكهم فيتعاونون علي الإثم والعدوان والتمادي في الغَيّ «وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ»((3))، وهؤلاء لا ينتفعون بنصيحة ناصح وإنذار منذر كما في قوله سبحانه: «وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ

1- -- سورة المطففين 14.

2- -- سورة الأعراف/164.

3- -- سورة الأعراف/202.

أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ»((1))، وأمثال هؤلاء قـد يتظاهر بالاسـتغفار أو التوبـة مماشاةً مع التائبين الحقيقيين ولكن التوبـة لا تنبعث من عمق إرادتهم، وإلي أمثال هؤلاء أشار أمير المؤمنين(عليه السـلام) ضـمن بيان مراحل التوبة بقوله(عليه السـلام): أن تعمد إلي اللحم الذي نبت علي السحت فتُذيبه بالأحزان حتي تُلصِق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد((2))

وقد تقدم تمام كلامه(عليه السلام)((3)).

وهذه الطائفة أهون من الأولي ويؤمل في حقها الانتباه والالتفات إلي ما هم فيه وإن كان احتمال تأثرهم بالمواعظ وقوارع المنذرات ضعيفاً، فقد روي في بعض المقاتل إن سـيد الشهداء(عليه السلام) حين أراد أن يعظ الأشقياء فأخذ بعضهم يصيح ويرفع صوته لِيَحول دون استماع كلامه قـال: (وإنمـا أدعوكم إلي سبيـل الرشـاد فمن أطـاعني كان من المرشـدين ومن عصاني كان من المهلكين وكلكم عاصٍ لأمري غير مستمع قولي فقد ملئت بطونكم من الحرام وطبع علي قلوبكم، ويلكم ألا تنصتون، ألا تسمعون)((4))

وكان عاقبة أمرهم إلي ما نعلمه جميعاً، ولذلك ورد التحذير الشديد من أكل المشتبهات فضلاً عن

1- -- سورة هود/34.

2- -- نهج البلاغة/ الحكم والمواعظ/ الفقرة 417.

3- -- تقدَّم في الشرط السادس من شروط التوبة.

4- -- والبحار ج 45 ص 8.

أكل الحرام، ومعلوم أيضاً إن المعاشـرة مع المذنبين والمسـتهزئين بدين الله وأحكام شريعته أيضاً يسبب مثل هذه الحالة، ولذلك مُنِعنا عن مخالطـة المـذنبين والمعايشـة معهـم وأمرنا بالابتعاد عن مجالس اللهو ومجالس البطالين الـذين لا يهتمون بالدين فان المعاشـرة مع هؤلاء تؤدي إلي مثل هذه الحالة.

ومنها: قساوة القلب.

إذا اسـتمر الإنسان في عدم المبالاة وعدم الاهتمام بالشـريعة رغم أدائه للواجبات واستمر في ارتكاب الصغائر مع عدم تورعه عن الكبائر إذا أُتِيحت له الفرصة فيقسو قلبه فلا تلين لاستماع المواعظ نفسه ولا يخضع لتأثير النصح وان كان يخضع لاستماعها إلاّ إن قساوة القلب تحول دون اللجوء إلي التوبة ولا تذرف عينه دمعةً واحدةً في خوف الله، انه يبكي علي ما يفوته من الدنيا ويصرخ علي فقدان أهله وأصدقائه وأولاده لا تظهر أية دمعة في زوايا عينيه مخافة من الله تعالي.

وهذه الطائفة تُشـير إليها بعض الآيات مثل قوله سبحانه: «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً»(1)، وقال سبحانه: «وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ

1- -- سورة البقرة/74.

يَعْمَلُونَ»((1))، وقوله تعالي: «فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ»((2))، وقوله(عزوجل): «فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً»((3))، وحَذَّر الله سبحانه عن قساوة القلب قال تعالي: «فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ»((4)).

وهذه الطائفة أهون من السابقتين إذا كان الشخص من الذين آمنوا بالله ورسوله، فإذا اقتضت الحكمة الإلهية فشملته الرحمة فينتبه إلي ما هو فيه ويلجأ إلي من يرشده وينبهه ويبادر إلي إصلاح نفسه فيحدث انقلاب من حالة إلي أخري علي غرار ما حدث للحر بن يزيد الرياحي(رضي الله عنه)، ولذلك التائب الذي كان يسرق الأكفان في زمن النبي الأعظم(صلي الله عليه و آله) وغير ذلك من شواهد ونظائر كثيرة.

ومنها: الاغترار بالإمهال.

ربما يظن الإنسان إن الله سبحانه قد مَنَّ عليه في الدنيا فيتمادي في الذنوب والغَيِّ ويجعله الشيطان يعتقد بان الله سبحانه سوف يتجاوز عنه ويغفر له كل ما يفعل من دون حاجة إلي التوبة واتخاذ ما يمكن أن يكون وسيلة لتكفير ذنوبه ولا يدري إن النعم الدنيوية

1- -- سورة الأنعام/43.

2- -- سورة الحديد/16.

3- -- سورة الحديد/13.

4- -- سورة الزمر/22.

والإمهال استدراج له، وإلي أمثال هؤلاء يشير قوله سبحانه: «فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّي إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً»((1)) والعياذ بالله، ويغفل هؤلاء عن أن غفران الذنوب وشمول رحمته سبحانه في كثير من الآيات مشروط بالتوبة قال تعالي: «فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً»((2))، وكقوله سبحانه: «فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَي أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ»((3))، وقوله سبحانه: «كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ»((4))، والظاهر إن المراد بالكفر الخروج من الطاعة وليس المقصود كفر العقيدة فإنه لا يجتمع مع الشهادة بان النبوة - نبوة رسول الله(صلي الله عليه و آله) -- حقٌ، وكقوله

1- -- سورة الأنعام: آية 44.

2- -- سورة مريم: الآيتان 59 , 60.

3- -- سورة القصص/67.

4- -- سورة آل عمران/85-- 89.

سبحانه: «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ»((1)).

وروي ما معناه لا تكن ممن يرجو رحمة الله بلا عمل.

ومنها: الاغترار بالثواب الموعود علي بعض المستحبات.

هناك مستحبات ورد في الروايات الوعد عليها بالأجر الجزيل والوعد بالجنة كزيارة سيد الشهداء(عليه السلام) وصلاة الليل وغير ذلك من المستحبات فيتخيل المغرور بان الإتيان بهذه المستحبات كلها أو جلها أو بعضها يغنيه عن التوبة، فربما يكف عن المعاصي ويكتفي بالمستحبات المومي إليها معتقداً استغناءه بها عن التوبة عما فعل، أو قد تغلبه شقوته فيستمر في المعاصي ويغفل عن أن الله سبحانه إنما يمنح الأجر الموعود علي المستحبات وغيرها إذا قُبِلَت وان الله سبحانه لا يتقبلها إلا من المتقين قال الله سبحانه: «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ»((2))، ولا تقوي مع ترك أهم الواجبات الإلهية وهو التوبة. ومنها: استحقار الذنوب أو استصغارها واستقلالها.

ربما يقع العبد فريسةً سهلةً في يد الشيطان الرجيم فتجره النفس الأمارة بالسوء إلي مهلكة تكون محرقة له في الآخرة وربما في الدنيا

1- -- سورة النحل/119.

2- -- سورة المائدة/27.

أيضاً وهو انه يري ذنبه ليس بشيءٍ في مقابل ذنوب الآخرين، أو ليس بشيءٍ تجاه رحمة الله، أو انه لم يذنب إلا هذا الذنب وغيره قد أوغل في الذنوب، أو يستصغر ذنبه ويغفل عن عظمة من أساء إليه وخرج من طاعته وتمرد عليه وهو المولي جَلَّت عظمتُه، فقد روي زيد الشحام قال: قال أبو عبد الله الصادق(عليه السلام): اتقوا المحقرات من الذنوب فإنها لا تُغفر، قلتُ: وما المحقرات؟ قال: الرجل يذنب الذنب فيقول طوبي لي لو لم يكن غير ذلك((1)).

وروي سماعة بن مهران قال: سمعتُ أبا الحسن(عليه السلام) يقول: لا تستكثروا كثيرَ الخير ولا تستقلوا قليلَ الذنوب، فإن قليل الذنوب يجتمع حتي يكون كثيراً، وخافوا الله في السِّر حتي تعطوا من أنفسكم النصف((2)).

وروي الكليني(رضي الله عنه) بسنده عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام) قال: إن رسول الله(صلي الله عليه و آله) نزل بأرض قرعاء فقال لأصحابه: ائتوا بحطب، فقالوا: يا رسول الله نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب، قال: فليأتِ كل إنسان بما قدر عليه فجاؤوا به حتي رموا بين يديه بعضه علي بعض، فقال رسول الله(صلي الله عليه و آله): هكذا تجتمع الذنوب، ثم قال: إياكم والمحقرات من الذنوب فإنَّ لكل شيءٍ طالباً، ألا وإن طالبها يكتب ما قَدَّموا وآثارهم وكل شيءٍ أحصيناه في إمام مبين((3)).

1- -- أصول الكافي ج 2 باب استصغار الذنب ص 287 ح 1.
2- -- المصدر السابق ص 287-- 288 ح 2.
3- -- المصدر السابق ص 288 ح 3.

ومنها: انخداع الإنسان بأن معصيته مغفورة.

ربما يغتر الإنسان لسفاهته وقلة فهمه فيتخيل أو يعتقد بان ما يفعله من المعاصي هي من صغائر الذنوب وهي مغفورة بدون حاجة إلي التوبة لأن الله سبحانه يقول: «إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً»((1)) ويغفل أو يتغافل عن أمرين:

احدهما: إن الإصرار علي المعصية وان كانت صغيرة يجعلها كبيرة، فقد روي عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام) انه قال: لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار((2)).

وعن أبي بصير قال سمعتُ أبا عبد الله(عليه السلام) يقول: لا والله لا يقبل الله شيئاً من طاعته علي الإصرار علي شيء من معاصيه((3)).

ثانيهما: إنَّ الله سبحانه وعد بالتجاوز عن الصغائر مع الاجتناب عن الكبائر إلا انه قيَّدها بعدم الإصرار، فقد روي جابر عن أبي جعفر(عليه السلام) في قول الله(عزوجل): «وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَي مَا فَعَلُواْ وهم يعلمون»((4))، قال: الإصرار هو أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا يحدث نفسه بتوبة فذلك الإصرار((5)).

1- -- سورة النساء/31.
2- -- أصول الكافي ج 2 باب الإصرار علي الذنب ص 288 ح 1.
3- -- المصدر السابق ح 3.
4- -- سورة آل عمران/135.
5- -- أصول الكافي ج 2 باب الإصرار علي الذنب ص 288 ح 2.

ومنها: القنوط من رحمة الله واليأس من روحه.

قال الله سبحانه: «لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً»((1))، طبعاً مع التوبة وسائر ما يحتاج إليه لكسب المغفرة، وقال تعالي: «وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ»((2))، وقال تعالي: «وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ»((3))، وقال تعالي: «وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ»((4))، وقال تعالي: «وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئوساً»((5)).

وقد روي في كتاب عيون أخبار الرضا(عليه السلام) أن عبد الله البزاز النيشابوري قال: كان بيني وبين حميد بن قحطبة تجارة وبعد أن رجعت من سفرة استدعاني، فذهبتُ لرؤيته بلباس السفر دخلتُ عليه وكان الوقت ظهراً من شهر رمضان المبارك أحضر له طشتاً وإبريقاً فغسل يديه وأمرني بذلك فغسلت يديّ ونسيت أنه شهر رمضان وبعد أن أحضروا الطعام تذكرت أنه شهر رمضان فجلست بعيداً، فقال حميد: لماذا لا تأكل؟ قلتُ: أيها الأمير انه الشهر

1- -- سورة الزمر/53.

2- -- سورة الحجر/56.

3- -- سورة الروم/36.

4- -- سورة فصلت/49.

5- -- سورة الإسراء/83.

المبارك ولستُ مريضاً ولا عـذر آخر لي لأفطر ويمكن أن يكون للأمير عـذر، فبكي وقال: أنا أيضاً لا عذر لي ولستُ مريضاً، ثم سال الدمع علي وجنتيه وبعـد أن انتهي من الطعام سألتُه عن سـبب بكائه، فقال: عندما كان هارون الرشـيد عليه اللعنة في طوس أرسل خلفي ذات ليلة وعندما دخلتُ عليه رأيتُ بقربِهِ شمعةً مضاءةً وسيفاً أخضر اللون بدون غلافه، وعندما رآني سألني كيف هي طاعتك لأمير المؤمنين، قلتُ: بـالروح والمـال، فسـمح لي بالانصـراف، ولـم تَمرّ فترةٌ حتي أحضـرني مرة ثانيـة وكرر نفس السؤال، فقلتُ: بالروح والمال والأهل والأولاد، فسـمح لي بالانصـراف وحَدَثَ الشـيء نفسه في المرة الثالثة، فقلتُ: بالروح والمال والأهل والأولاد والدين، فضحك فقال: خُذ هذا السيف وبمجرد أن يرشدك الخادم إلي شخص اقتله، فأخذتُ السيف وسرتُ خلف الخادم، فأخذني إلي منزل بابه مقفل وبعد فتحه دخلنا فرأيتُ في الوسـط حفرة وكان في البيت أربع حجرات وكل واحـدة منها مقفلـة، ففتـح باب إحـداها فرأيت عشـرين شـخصاً بين عجوز وشاب مكبلين بالسلاسل وكانوا كلهم من أبناء علي والزهراء (عليهما السلام)، قال الخادم: يجب أن تقتلهم جميعاً وكان يحضرهم الواحد تلو الآخر وكنتُ اقطع رقابهم وأرمي برؤوسهم في الحفرة حتي قُتِلوا جميعاً، ثم فتح باب الحجرة

الثانيـة وكـان فيهـا كالأـولي فقتلتُهم جميعاً ورميت رؤوسـهم في الحفرة، ففتـح الباب الثالث وكان فيها مثل سابقتيها فقتلتُهم جميعاً وبقي عجوز واحد فقال لي: ماذا لديك من عذر يوم القيامة عندما يحضرونك أمام جدي رسول الله(صلي الله عليه و آله) ويسألونك عن قتل ستين فرداً من أبنائه من دون ذنب؟! فارتعدت فرائصي فنظر الخادم إليّ نظرة غاضبة فَخِفتُ وقَتلتُ ذلك العجوز أيضاً ورميتُ رأسه في تلك الحفرة، فما فائدة الصـلاة والصـيام لِمَن قَتلَ ستين فرداً من أولاد الرسول(صلي الله عليه و آله) وأنا علي يقين من إني مخلدٌ في جهنم، ولهذا فإني لا أصوم شهر رمضان((1)).

ويروي أنه بعد مجيء الإمام علي بن موسـي الرضا(صـلي الله عليه و آله) إلي خراسان روي عبد الله النيشابوري قصة ذلك الملعون ويأسـه من ربه للإمام(عليه السـلام)، فقال(عليه السـلام): الويلُ له، إن اليأس الـذي كان لـدي حميد من الرحمة الإلهية اكبر ذنب من قتل الستين علوياً((2)).

ص: 162

1- -- عيون أخبار الرضا(عليه السلام) ج 1 ص 108، والبحار ج 48 ص 176.
2- -- كتاب الذنوب الكبيرة للسيد عبد الحسين دستغيب هامش ص73.

الفوائد المترتبة علي التوبة

قد تقدم إن التوبة مطلوبة من الكل وكما تقدم إنها تختلف من شخصٍ إلي آخر فهناك توبة المعصومين وغيرهم، فلابد أن تكون الثمرات والفوائد المرجوة والغايات المقصودة من توبة كل صنفٍ من أصناف التائبين يختلف عما يرجي ويقصد ويترتب علي توبة صنف آخر.

أما توبة المعصومين(عليهم السلام) فبما إنها عبارة عن الرجوع إلي الله سبحانه بُغية التخلص من الدنيا ومستلزماتها من السكني فيها التي رغم اقتضائها رفع الدرجات لهم لابتلائهم بها ومقارعتهم ومصارعتهم أهل الدنيا ومتطلباتها إنها عوائق عن التحاقهم بالملأ الأعلي والعودة إلي حظيرة القدس التي هي الغاية العليا والغرض الأسمي لهم ولذلك يرفضون الدنيا وان لم يكن الاستفادة بها علي حساب مراتبهم العليا في الآخرة فقد طَلَّقها سيد الأوصياء(عليه السلام) ثلاثاً كما تقدمت الإشارة إلي الكلام الذي رُوي عن ضرار بن

ضمرة، وقد عُرِضت الدنيا علي النبي الأعظم(صلي الله عليه و آله) والبقاء فيها ما دامت باقية من دون أن ينقص من حظه في الآخرة شيءٌ واختار الآخرة استناداً إلي قوله سبحانه: «وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَي * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَي»((1))، وإلي مرتبة المعصومين التائبين أشار قوله سبحانه: «إِنَّ اللّهَ اشْتَرَي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَي بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ»((2))، فإن بذل النفس هو أقصي غاية الجود من الكريم وأعلي درجات الاستسلام لطاعة الله.

وهؤلاء الذين أشارت الآية إليهم قد باعوا أنفسهم وأموالهم وهو تَنَزُّلٌ مِن الأعلي إلي الأنزل، وإنما ذُكِر الأمران لأن العبادة بدنية ومالية ولا ثالث لهما، ويروي أن الله سبحانه تاجر المؤمنين فأعلي

ص: 164

1- -- سورة الضحي/4 , 5.

2- -- سورة التوبة/111, 112.

لهم الثمن فجعل لهم الجنة، وروي الطبرسي(رضي الله عنه) أنه كان الإمام الصادق(عليه السلام) يقول: أيا مَن ليست له همة، إنه ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها، وأنشد الأصمعي للصادق(عليه السلام):

أثامن بالنفس النفيسة ربها

فليس لها في الخلق كلهم ثمنْ

بها نشتري الجنات إن أنا بعتها

بشيءٍ سواها إن ذلكم غبنْ

إذا ذهبت نفسي بدنيا أصبتها

فقد ذهب الدنيا وقد ذهب الثمنْ((1))

ومعلوم أن الصفات المذكورة في الآيتين مجتمعة لا توجد إلا في المعصومين(عليهم السلام) كما التزم بذلك في مجمع البيان علي مبادئ الإمامية (رضوان الله عليهم)، ويؤكد ذلك ما روي من أن هذه المبايعة المشار إليها كانت من أمير المؤمنين(عليه السلام) وأخيه جعفر وعمه الحمزة (سلام الله عليهما) كما ورد في زيارة أمير المؤمنين(عليه السلام) يوم الغدير، وروي العياشي والقمي إنها نزلت في الأئمة(عليهم السلام) لأنه وصفهم بصفة لا تجوز في غيرهم((2)).

1-- مجمع البيان ج 5 ص 130.
2-- تفسير القمي ج 1 ص 306، و تفسير الصافي ج 1 ص734.

ومما يترتب علي توبة المعصومين(عليهم السلام) رفع الدرجات، فتوبة أبينا آدم (علي نبينا وآله وعليه السلام) كان مما ترتب عليها ما يشير إليه قوله سبحانه وتعالي: «إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ»((1))، وقوله تعالي: «ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى»((2))، وفي حق نبي الله يونس(عليه السلام) فقد ورد: «لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ»((3)).

وورد في حق نبي الله داوود(عليه السلام): «وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ * يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ»((4)).

وهكذا تجد كل نبيٍ ما ذُكِرَتْ له توبةٌ إلا وعقبه الله سبحانه ببيان مَنح فضيلة أو درجة أو نعمة له.

ودرجات المعصومين لا تقاس بالمقاييس الدنيوية لأنها لا ترتبط بها ولذلك لا تعرف إلا من الله تعالي أو منهم(عليهم السلام)، وخير ما يترتب علي توبتهم هو التخلص من اضطراب السِّر.

ص: 166

1- -- سورة آل عمران/33.

2- -- سورة طه/122.

3- -- سورة القلم: الآيتان 49 , 50.

4- -- سورة ص/24-- 26.

وأما توبـة أولياء الله فخير ما يترتـب عليها هو التخلص من تلوين الخطرات الناشـئ من ارتباط أرواحهم بالأجساد الناسوتيـة وسـكناهم بين أهل الدنيا.

وتوبة الأصفياء تخلصهم من الانزعاج الناشئ عن التنفيس اللازم لارتباطهم بالأجساد التي يحتاج إلي التغذية والراحة فيمدهم الله سبحانه بقوة يواصـلون بها العمل في التقرب إلي الله تبارك وتعالي فيسـتمرون في سبيله ويسارعون في مراتب الـدنو من جناب قـدسه تعالي، ولعل إلي هذا يُشير ما عن الإمام موسي بن جعفر(عليه السلام) وهو في السجن (اللهم إنك تعلم إني كنتُ أسألكَ أن تفرّغني لِعبادتِكَ وقد فعلتَ فلك الحمد)((1)).

وأما توبة الخاصة فيسعفهم الله سبحانه فيخلص عملهم له تعالي وتفرغ قلوبهم من غيره تعالي.

ويترتب علي توبة العالم بالمعصية تبرئته من الذنوب التي احتطبها علي ظهره، وإليه تشير آيات متعددة منها قوله سبحانه:

«إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَي اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً»((2))، فإن الذي

1- -- الإرشاد ج 2 ص 240، والبحار ج 48 ص 107.

2- -- سورة النساء/17.

يجهل المعصـية لا ذنب عليه، وقوله تعالي: «فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ»((1))، وقوله تعـالي: «وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَي اللَّهِ مَتَاباً»((2))، وقوله تعالي: «وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً»((3)).

ومما يترتب علي توبـة عامـة الناس فضـلاً عن غفران الـذنوب التي تابوا عنها التوسـعة في الرزق والولد وزيادة الخيرات، وقد روي ذلك عن المعصومين(عليهم السلام) ((4)) ويشـير إليه قوله سـبحانه: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارا»((5))، وقوله سبحانه في قصة هود: «وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَي قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ»((6))، فمما يروي انه قال رجلٌ لأبي عبد الله الصادق(عليه السلام): جُعلتُ فداك لَم أُرزق ولداً، فقال له: إذا رجعتَ إلي بلادك وأردتَ أن تأتي أهلك فاقرأ إذا أردت ذلك «وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً

ص: 168

1- -- سورة المائدة/38.

2- -- سورة الفرقان/71.

3- -- سورة هود/3.

4- -- مكارم الأخلاق باب في طلب الولد الرواية الثالثة والرابعة.

5- -- سورة نوح/10-- 12.

6- -- سورة هود/52.

فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ»((1)) إلي ثلاث آيات فإنَّك سترُزق ولداً إن شاء الله((2)).

ومما يترتب علي التوبة أنها تجلب حب الله لعبده التائب وذلك لأن المحب محسن في تهذيب نفسه وأخلاقه وعمله «وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»((3))، كما لا ريب إن التائب صابر يكف نفسه ويحبسها في طاعة الله ويشذب هفواته التي نبتت من الانجراف وراء الدنيا «وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ»((4))، ولا ريب في أن التوبة تدرج صاحبها في زمرة المتقين: «إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ»((5))، كما لا ينبغي الامتراء في أن التوبة تُطَهِّر نفس الإنسان من جميع أنواع الرجس وتزيل عن صفحة نفسه ما لحق بها من ويلات الذنوب فهو متطهر فتجعله في صنف متميز أشار إليه قوله سبحانه: «رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ»((6)).

ويجب أن نعلم أن التوبة تخرج الإنسان من صنف الظالمين لنفوسهم إلي المصلحين المقسطين فيكون في زمرة من أشار إليه

1-- سورة الأنبياء/87 -- 88.

2-- الكافي ج 6، باب الدعاء في طلب الولد ص 10 ح 10.

3-- سورة آل عمران/134.

4-- سورة آل عمران/146.

5-- سورة التوبة/4.

6-- سورة التوبة/108.

قوله سبحانه: «وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»((1))، والتوبة جهاد مع النفس وهو أفضل أنواعه، فالتائب مجاهد فيشمله قوله سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ»((2))، ولا شك في أن التائب تابع لأوامر الله سبحانه ونبيه (صلي الله عليه و آله) فهو محبوب له تعالي لقوله: «قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»((3)).

ثم أعلم يا أخي إن اشرف مراتب التوبة هي التي تنبعث من حب الإنسان لله سبحانه وكأنه في هفواته قد ابتعد عن ساحة المحبين له تعالي، وبتوبته ورجوعه إليه تعلّق به وبحبه وأزاح ما أحدثه مِن الحواجز بينه وبين محبوبه الحقيقي، فكلما زاد حبه له تعالي زاد قربه منه وارتفعت مرتبة توبته ليصبح مصداقاً لقوله سبحانه: «وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ»((4)).

وبعودة العبد إلي زمرة الصالحين يبتعد العبد عن ما يثير غضب الله سبحانه وانتقاصه له لأن الذي لم يطمع في حبه سبحانه قد أحيط قلبه بحب من سواه الذي ينشأ من حب الدنيا وحب أهلها

1-- سورة الحجرات/9.

2-- سورة الصف/4.

3-- سورة آل عمران/31.

4-- سورة البقرة/165.

وطلابها والساعين في سبيلها والـذي هو رأس كل خطيئـة ومنبع كل بليـة كما يشـير إليه قوله سـبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ»((1))، وقد أنتقد الله سبحانه محبي الدنيا بأبلغ طريقة قائلاً: «وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً»((2)).

1- -- سورة التوبة/23--24.

2- -- سورة الفجر/19--20.

خاتمة فيها أمور الأول في الذنوب:

اعلم ان قوله سبحانه: «إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ»((1))، وقوله تعالي: «وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ»((2))، وقوله تعالي: «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ»((3)) يقتضي أن الذنوب علي قسمين منها كبائر ومنها غيرها والتي عبر عنها قوله تعالي سبحانه بالسيئة، ولا يخفي إن لفظ السيئة ربما يطلق في الروايات والآيات علي مطلق المعصية كبيرة كانت أو غيرها ولكنه في الآية الأولي جاءت في مقابل الكبيرة فلا بأس بان نترجمها بالصغيرة، ولا يبعد أن يكون قوله تعالي: «لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً

1- -- سورة النساء/31.

2- -- سورة الشوري/37.

3- -- سورة النجم/32.

وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا»((1)) إشارة إلي تقسيم المعصية إلي صغيرة وكبيرة، وان كان لبعض الأعلام إشكال في تقسيم المعصية إليهما نظراً إلي إن من عصيته كبير وكلما قد أذنبت ذنباً تجاهه فهو يُعَد كبيرة.

ولا يمكن معرفة الكبيرة وتمييزها عن الصغيرة إلا من قبل الشرع المقدس، ومن المناسب جداً أن نذكر هنا ما اعتبره الشرع الشريف من الكبائر ثم نذكر بعض ما يمكن أن تكون من الكبائر أيضاً ويغفل عنها العبد كثيراً بل ربما لا يعتبرها معصية أصلاً.

وللكبائر علامات منصوصة في الروايات فعن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام) في قول الله(عزوجل): «إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً»((2))، قال الكبائر هي التي اوجب الله عز وجل عليها النار((3)).

ثم اعلم أن الروايات التي وردت في عَدِّ المعاصي الكبيرة مختلفةٌ من حيث العدد، ولعل الاختلاف فيها لأجل الاكتفاء في بعض الروايات بأبرز المعاصي الكبيرة وأشنعها إذ بين الكبائر

1- -- سورة الكهف/49.

2- -- سورة النساء/31.

3- -- أصول الكافي ج 2 باب الكبائر ص276 ح 1.

مراتب، ونحن نشير إلي الكبائر المنصوصة مع غض النظر عن المراتب بينها.

منها: قتل النفس الحرام وعقوق الوالدين واكل الربا والتعرب بعد الهجرة((1))

وقذف المحصنات((2))

وأكل مال اليتيم ظلماً والفرار من الزحف((3)) واليأس من روح الله والأمن من مكر الله((4)) والشرك بالله سبحانه، والزنا حتي ورد عن الإمام الصادق(عليه السلام) أنه قال: من زنا خرج من الإيمان(5)،وشرب الخمر والسرقة والكفر بالله وترك الواجبات كالصلاة والصوم والحج والزكاة والخمس والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتولي لأهل البيت والتبري من أعدائهم، والسحر تعلّمه وتعليمه وعمله إلا ما كان لأجل دفع ضرره

1- -- المقصود به أن يخرج الإنسان من البلاد الإسلامية والأماكن التي يمكنه فيها معرفة الأحكام والالتزام بالدين ويذهب إلي حيث لا يتمكن من ذلك فبعدما أصبح للمسلمين أماكن يأوون إليها ويتمكنون من إظهار شعائر الإسلام فالخروج من هذه الأماكن تعرب بعد الهجرة.

2- -- أي رمي العفيفة غير المشهورة بالزنا به وهذا الحكم يشمل قذف الرجال أيضاً.

3- -- الفرار من العدو بعد الالتقاء مع ملاحظة الشرائط المذكورة في باب الجهاد في الكتب الفقهية.

4- -- وهو أن يأمن الإنسان من الاستدراج ويغتر بالإمهال.

5- -- أصول الكافي ج 2 باب الكبائر ص 278ح 5.

عن المظلوم، واليمين الغموس الفاجرة وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار، والغلول والمقصود به الخيانة في المغنم والسرقة من الغنيمة قبل القسمة، وشهادة الزور وكتمان الشهادة، ونقض العهد، وقطيعة الرحم، والتكبر، والحسد، والرياء، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، والكذب، وخلف الوعد الذي يجب الوفاء به، والخيانة فعن يزيد الصائغ قال: قلتُ لأبي عبد الله الصادق(عليه السلام): رجل علي هذا الأمر إن حدَّثَ كذب، وإن وعد أخلف، وإن أؤتمن خان، ما منزلته؟

قال: هي أدني المنازل من الكفر وليس بكافر((1)).

ومنها: التفحش والبذاءة واللعن للمؤمن والقيادة والدياثة والغيبة((2)) والنميمة، والزيادة والنقيصة في كتاب الله وسنة نبيه(صلي الله عليه و آله)، وطلب الرياسة من غير أهلية، والإساءة إلي مقدسات الإسلام، وإختتال الدنيا بالدين أي يطلب الدنيا بعمل الآخرة، والتعصب((3))،

1- -- المصدر السابق، باب في أصول الكفر وأركانه ص 290 ح 5.
2- -- وقد روي إن الغيبة اشد من الزنا وهي أن تقول في أخيك المؤمن وتكشف ما ستره الله عليه.
3- -- وفُسِّرت العصبية التي يؤثم عليها صاحبها بان يري الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين وليس من العصبية ان يحب الرجل قومه ولكن من العصبية أن يعين قومه علي الظلم.

والعنصـرية فقـد ورد في الخبر عن أبي عبد الله الصادق(عليه السـلام): من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربقة الإيمان من عنقه((1))،وفي آخر عنه(عليه السلام): من تعصب عصبه الله بعصابة من النار((2)).

ومن جملة المعاصي الكبيرة العجب((3)) ففي الرواية: من دخله العجب هلك((4))، واعلم أن العجب درجات منها أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيعجبه ويحسب انه يحسن صنعاً.

ومنها أن يؤمن العبد بربه فيمنّ علي الله(عزوجل).

ومنها أن يستعظم العمل الصالح منه ويستكبره ويدل به.

ومنها أن يري نفسه خارجاً عن حد التقصير.

ومن جملة المعاصي الكبيرة البغي، فعن أمير المؤمنين(عليه السلام) أنه قال: أيها الناس إن البغي يقود أصحابه إلي النار((5)).

ومنها: الظلم، واعلم ان الظلم ثلاثة، ظلم يغفره الله، وظلم لا يغفره الله، وظلم لا يدعه الله، فأما الظلم الذي لا يغفره فالشرك، وأما

1- -- أصول الكافي ج 2 باب العصبية ص307 ح 1.
2- -- المصدر السابق ص 308 ح 4.
3- -- العجب: هو الزهو.
4- -- أصول الكافي باب العجب ص 313 ح 2.
5- -- المصدر السابق، باب البغي ص327 ح 4..

الظلم الذي يغفره الله فظلم الرجل نفسه فيما بينه وبين الله((1))، وأما الظلم الذي لا يدعه الله فالمداينة بين العباد((2))وقد تقدم ذلك.

ومن المعاصي الكبيرة المكر والخديعة والغدر((3)).

ومن المعاصي أن يكون الإنسان ذا لسانين، فقد روي: من لقي المسلمين بوجهين ولسانين جاء يوم القيامة وله لسانان من النار((4)).

ومنها: إيذاء المسلمين واحتقارهم فقد روي عن الإمام الصادق(عليه السلام): قال الله(عزوجل): ليأذن بحربٍ مني مَن آذي عبدي المؤمن، وليأمن غضبي من أكرم عبدي المؤمن((5)).

ومنها: إهانة المؤمن فعن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام): إن الله تبارك وتعالي يقول: من أهان لي ولياً فقد أرصد لمحاربتي وأنا أسرع شيء إلي نصرة أوليائي((6)).

ص: 178

1- -- ومعلوم ان المغفرة مشروطة بشرائط منها التوبة.

2- -- أصول الكافي ج 2 باب الظلم ص330-- 331 ح 1.

3- -- والمقصود: ارتكاب هذه الأمور مع المؤمن أو المسلم المسالم.

4- -- أصول الكافي ج 2 باب ذي اللسانين ص343 ح 1.

5- -- المصدر السابق، باب من آذي المسلمين واحتقرهم ص 350 ح 1.

6- -- المصدر السابق ص351 ح 5.

ومنها: الانتفاء من النسب فعن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام) كفر بالله من تبرأ من نسب وان دقّ((1)).

ومنهـا: طلب عوارت المؤمنين وعـثراتهم، فعن أبي جعفر وأبي عبـد الله(عليهم السـلام) قالاـ: وأقرب مـا يكون العبـد إلي الكفر أن يواخي الرجل علي الدين فيحصي عليه عثراته وزلاته ليعنفه بها يوماً ما((2))،

وعن رسول الله(صلي الله عليه و آله) قال: يا معشر من أسلم بلسانه ولم يخلص الإيمان إلي قلبه لا تذموا

المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فانه من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته ومن تتبع الله تعالي عورته يفضحه ولو في بيته((3)).

ومن جملة المعاصي تعيير المؤمن فعن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام) قال: مَن عَيَّر مؤمناً بذنبٍ لم يمت حتي يركبه((4)).

ومنها: إذاعة الفاحشة فعن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام) قال: قال رسول الله(صلي الله عليه و آله): من أذاع فاحشةً كان كمبتدئها، ومَن عَيَّر مؤمناً بشيء لم يمت حتي يركبه((5)).

الظاهر المقصود بإذاعة الفاحشة إذا عرف مِن مؤمن معصية يذكرها لعامة الناس.

ص: 179

1- -- المصدر السابق، باب الانتفاء ص 350 ح 1

2- -- المصدر السابق، باب من طلب عثرات المؤمنين وعوراتهم ص354 ح1.

3- -- نفس المصدر السابق، ص355 ح 2.

4- -- المصدر السابق، باب التعييِّر ص 356 ح 3.

5- -- المصدر السابق، ح 2.

ومنها: الرواية علي المؤمن وهي أن ينقل عنه كلاماً يدل علي سخافة رأيه وضعف عقله وسفاهة طبعه، ومعلوم أن مورد المشورة خارج عن الحكم – فعن أبي عبد الله (سلام الله عليه): مَن روي علي مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروءته ليسقط في أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلي ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان((1)).

ومنها: الشماتة بالمؤمن وهي الفرح ببلية الغير فعن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام) أنه قال: لا تُبدِ الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويُصيّرها الله بك، وقال(عليه السلام): مَن شمت بمصيبة نزلت بأخيه لم يخرج من الدنيا حتي يُفتَتَن((2)).

ومنها: سباب المؤمن والسب هو الشتم والكلام القبيح ولا يكون فيه قذف فإذا قلتَ لأحد يا كلب مثلاً أو يا بخيل أو يا حقير فقد شتمتَه، فعن أبي جعفر(عليه السلام) قال: قال رسول الله(صلي الله عليه و آله): سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، واكل لحمه معصية، وحرمة ماله كحرمة دمه((3))،وعن أبي الحسن موسي(عليه السلام) في رجلين يتسابان قال(عليه السلام) البادي منهما أظلم ووزره ووزر صاحبه إليه ما لم يعتذر إلي المظلوم((4)).

1- -- المصدر السابق، باب الرواية علي المؤمن ص358 ح 1.
2- -- المصدر السابق، باب الشماتة ص359 ح 1.
3- -- أصول الكافي ج 2 باب السباب ص360 ح 2.
4- -- المصدر السابق، ح 4.

ومنهـا: التهمـة وهي أن تشك في أخيك أو تعتقـد فيه ما لـم يثبت انه فيه من سوء، فعن أبي عبـد الله الصادق(عليه السـلام) انه قال: إذا اتهم المؤمن أخاه إنماث الإيمان من قلبه كما ينماث الملح في الماء((1))

أي يذوب، وعنه(عليه السلام): مَن اتهم أخاه في دينه فلا حرمة بينهما((2)).

ومنها: إساءة الظن، فعن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين(عليه السلام): ضع أمر أخيك علي أحسنه حتي يأتيك ما يغلبـك منه، ولاـ تظننّ بكلمـة خرجت من أخيـك سوءاً وأنت تجـد لها في الخير محملاً((3)). وقـد نهي الله سـبحانه عن أتباع الظن قال سبحانه: «إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ»((4))، وقال تعالي: «إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ»((5))

ينبغي أن يعلم أن استصـغار المعصـية وعـدم الاهتمـام بهـا واحتقارهـا يجعلها في حكم الكبيرة وقـد تقـدم فيما سـبق انه قال أبو عبـد الله الصادق(عليه السـلام): اتقوا المحقرات من الذنوب فإنها لا تُغفَر، قال الراوي: وما المحقرات؟ قال: الرجلُ يذنب الذنب فيقول طوبي لي لو لم يكن لي

1- -- المصدر السابق، باب التهمة وسوء الظن ص 361 ح 1.

2- -- المصدر السابق، ح 2.

3- -- المصدر السابق، ص 362 ح 3.

4- -- الأنعام آية 116.

5- -- الأنعام آية 148.

غير ذلك((1))، وفي رواية أخري معتبرة عن أبي الحسن(عليه السلام) قال:... ولا تستقلوا قليل الذنوب فإن قليل الذنوب يجتمع حتي يكون كثيراً((2)).

والإصرار علي السيئة يجعلها في حكم الكبيرة فعن أبي عبد الله(عليه السلام): لا صغيرة مع الإصرار((3))، وفَسَّر الإمام الباقر (عليه السلام) الإصرار بقوله: أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا يُحَدِّثُ نفسه بتوبةٍ فذلك الإصرار((4))،

وعن الإمام الصادق(عليه السلام) قال: لا والله لا يقبل الله شيئاً من طاعته علي الإصرار علي شيء من معاصيه((5)).

المعاصي المغفول عنها:

منها: أن يعتقد الإنسان بأنه قائم بما يجب عليه ويعتقد نفسه بريئة ولا تستحق أية مؤاخذة وهذا الاعتقاد من الموبقات وان كان تجاه عمل معين مهما كان صغيراً أو كبيراً إذ ليس هناك من احد يتمكن من أداء حق العبادة أو حق الالتزام بالطاعة، ومن هنا نعرف ان المصائب التي تنزل علي الإنسان فإنها نتيجة معاصي العباد كما سنعرض إليه إن شاء الله، ومن

1- -- أصول الكافي باب استصغار الذنب ص 287 ح 1

2- -- المصدر السابق، ح 2.

3- -- المصدر السابق، باب الإصرار علي الذنب ص 288 ح 1.

4- -- المصدر السابق، ح 2.

5- -- المصدر السابق، ح 3.

اعتقاده البراءة لنفسه يتخيل إن معاصي غيره هي التي سببت له تلك المصائب وهذا من لوازم اعتقاد براءة نفسه وقد قال الله سبحانه: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَي ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ»((1)).

وإياك أن تظن إن هذا يعني إن الأنبياء والرسل والأئمة(عليهم السلام) أيضاً متلوثون - والعياذ بالله - بالمعاصي تمسكاً بعموم الآيتين السالفتين، وذلك لإنَّ كل حركة وسكون من أي أحد له ارتباط وثيق بالكون كله كما تشير إليه الأدعية مثل (اللهم أغفر لي الذنوب التي تهتك العصم، اللهمَّ اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء، اللهمَّ اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء...)((2)) ونزول العذاب علي الأمم السابقة بسيئات أعمالهم شاهد علي ذلك، وترتب بعض المصائب علي الأولاد كولادته أبكم أو اخرس أو أعمي أو أبرص نتيجة فعل والده، أو خروج الطفل ميالاً إلي الفجور نتيجة تصرفات أبويه، والآيات صريحة والروايات واضحة الدلالة علي هذا المعني، فإذا كثرت المعاصي فالله تعالي يفني العصاة نتيجة معاصيهم وأما الصالحون فيرفع درجاتهم أو

ص: 183

1- -- سورة فاطر/45.

2- -- مقطع من دعاء كميل (رضوان الله عليه).

يكون حـالهم حـال المعصومين فيُرفَعون من الأرض انتقامـاً من العصاة لأن فقـدان المعصوم حرمان الناس من بركات وجوده الاختيارية والتكوينية، وإلي الثاني يُشير قوله سبحانه: «وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ»((1))، وإلي الأول يشير قوله سبحانه: «وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ»((2)).

ومن الأمور التي هي من المعاصـي ويغفل عنها كثيراً هو أنه بارتكابه معصية ما يكون قد ارتكب معصية أخري وهو غافل عنها وذلك انه إذا ارتكب أحدٌ الزنا أو اللواط فإنه يتسـبب من ذلك بوقوع المصائب التي تعم الصالحين بل جميع الموجودات كنتيجة تكوينة حتمية، ومعلوم أن فاعل السبب هو فاعل المسبب، فيكون هذا الزاني أو اللائط - والعياذ بالله - فاعلاً للمصائب التي تنزل علي الناس فيكون قد ظلم الناس وهو يتخيـل انه لم يرتكب معصـية فيما بينه وبين الله سـبحانه، قال الله سـبحانه: «وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً»((3))، وأبشع هذه المعاصـي المُسبّبَة من معاصٍ أخري ما ينزل بالأنبياء والأئمة(عليهم السلام) من أنواع المصائب نتيجة ارتكاب الناس المعاصي وضلالتهم ليس فقط القتل والمحاربة وأنواع الأذي التي يتعرض لها

1- -- سورة الأنفال: آية 33.

2- -- سورة الأنفال: آية 33.

3- -- سورة الأنفال/25.

المعصومون فإنها معاصٍ صدرت مباشرة من الناس بل نعني أنواع المرض ونحوه من البلايا التي يبتلي بها المعصومون نتيجة فساد العالم وتكدر الفضاء لحصول المعاصي من قبل العصاة فانه إذا ظهر الغبار في غرفة أو نحوه فإن أول ما يظهر آثار الوسخ والغبار علي أنظف الأشياء وأطهرها، ومن هنا يظهر بفساد العالم واختلاله سبب ما يُصيب المعصومين قال الله سبحانه: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ»((1))، وقال سبحانه في حق بعض المجرمين: «الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ - فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ»((2))، وليس المقصود بالفساد خصوص المعاصي بل ما يشمل اختلال نظام العالم نتيجة ارتكاب المعاصي، وإليه يشير قوله سبحانه: «لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ»((3)).

بل حتي أعمال البشر هي التي تكون سبباً ليصبح ذلك البشر مرتعاً للشيطان قال سبحانه: «إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ»((4))، ومعظم الآيات التي تذكر نزول العذاب علي الأمم السابقة تدل علي انه كان نتيجة أعمالهم مثل قوله تعالي: «فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ

1- -- سورة الروم/41.

2- -- سورة الفجر/11--12.

3- -- سورة البقرة/205.

4- -- سورة آل عمران/155.

الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»((1))، وغيرها من الآيات، فارتباط حركات الإنسان وسكناته بنظام الكون لا ينبغي أن يغفل عنه الإنسان وهذه الغفلة تجعله غافلاً وساهياً عما يتسبب بفعله من الجرائم والمهالك للآخرين.

وربما يظن الإنسان إن ما ارتكبه في جنب ما ارتكبه الآخرون لا يُعَدّ شيئاً موجباً لنزول ما نزل علي الناس، ولكن ليعلم ان نفس هذا الاعتقاد يُعد في نفسه معصية لاستهانته بنفس ما ارتكبه، وأيضاً إن معصيته مهما كانت صغيرة قد أكملت وأتمت العلة التي اقتضت نزول العذاب فهو شريك في كل معصية صغيرة أو كبيرة فيما يحصل في العالم من المفاسد التكوينية وغيرها وحتي تَسَلّط بعض الظلمة علي أزمّة الأمور ينتج من ارتكاب المعاصي، ومِمّا يشهد لذلك دعاء الإمام سيد الشهداء(عليه السلام) حين رماه أبو الحتوف الجعفي لعنه الله بسهم في جبهته وسالت الدماء علي وجهه الشريف فقال: (اللهمَّ انك تري ما أنا فيه من عبادك هؤلاء العصاة، اللهمَّ أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تَذر علي وجه الأرض منهم أحداً، ولا تغفر لهم أبداً) وصاح بصوت عالٍ (يا امة السوء بِئسما خلفتم

1- -- سورة فصلت/17.

محمـداً(صـلي الله عليه و آله) في عِترته، أما إنكم لا تقتلون رجلاً بعـدي فتهابون قتله بل يهون ذلك عليكم عنـد قتلكم إياي، وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بالشـهادة ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشـعرون) فقـال الحصـين وبماذا ينتقم لك منا يا بن فاطمـة؟ قال: (يُلقي بأسكم بينكم، ويسفك دماءكم، ثم يصب عليكم العذاب صباً)((1)).

ودعاؤه(عليه السـلام) عنـد توديعه لولـده علي الأكبر (اللهمَّ فامنعهم بركات الأرض وفرِّقهم تفريقاً ومزقهم تمزيقاً واجعلهم طرائق قدداً ولا تُرض الولاة عنهم أبداً)((2)).

وإخباره(عليه السلام) بما يحدث إن هم قتلوه (أما والله لا تلبثون بعدها إلا كريثما يركب الفرس حتي تدور بكم دور الرحي وتقلق بكم قلق المحور، عَهدٌ عهده إليَّ أبي عن جدي رسول الله(صلي الله عليه و آله))((3)).

ودعاؤه (عليه السـلام) عقيب ما تقدم (اللهمَّ احبس عنهم قطر السما، وابعث عليهم سنين كسني يوسف، وسِلّط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً

ص: 187

1-- مقتل المقرم ص339، ومقتل العوالم ص 98، ونفس المهموم ص189، ومقتل الخوازمي ج 2ص 34.
2-- مقتل المقرم ص 312، ومقتل الخوارزمي ج 3 ص 30.
3-- مقتل المقرم ص283، وتاريخ ابن عساكرج 4 ص 434، ومقتل الخوارزمي ج2 ص7، واللهوف في قتلي الطفوف ص 54 ط صيدا.

مصبرة، فأنهم كذّبونا وخذلونا وأنت ربنا عليك توكلنا و إليك المصير)((1)).

وحدوث ما اخبر به سلام الله عليه دليل علي ما قلناه.

وفي الآيات التي اشرنا إليها نحو قوله تعالي: «فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»((2))، غني وكفاية.

ومن جملة هذه الأمور التي يُغفل عنها أن يُعاتِب العبد مولاه حينما يستبطئ الإجابة لدعائه ولا سيما إذا انضم إلي ذلك الاعتقاد بأنه لا قصور ولا تقصير له في دعائه فيظن أو يحتمل - العياذ بالله - التقصير أو القصور في جانب المُجيب ولعله من أقبح المعاصي إذ عمله هذا يستلزم الاعتقاد إما بعدم وفاء الله بوعده بأنه يُجيب دعوة الداعي وأما الظلم أو الجهل - العياذ بالله - في حقه سبحانه وفوق هذا وذاك قُبح اعتقاده بأنه لا قصور فيه ولا تقصير.

ومنها: أن يعتقد إن أعماله التي يعتقدها صالحة وصحيحة تستوجب له علي الله الكرامة ورفع الدرجات فيحسب نفسه في

1- -- اللهوف في قتلي الطفوف ص56، ومقتل الخوارزمي ج 2 ص 7.

2- -- سورة العنكبوت/40.

صف الصالحين، بل ربما إذا دمعت عينه أثناء الدعاء والعبادة يعتقد نفسه في صف أولياء الله سبحانه، ومعلوم ان كل ذلك غرور وجهل بل كاشف عن قبح سريرة الإنسان.

ومنها: أن يعتقد إن له مِنَّةً علي الله وفضلاً علي الناس لقيامه ببعض الأعمال كصلاة الليل وزيارة سيد الشهداء(عليه السلام) وغيره من المعصومين(عليهم السلام) ويجهل أن ما فعله إنما كان من نِعم الله تعالي عليه مِن جهة التشريعات الإلهية إذ الإسلام وما فيه من الأحكام مِن مِنن الله سبحانه علينا، قال الله سبحانه: «لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَي الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً»((1))، ثم مِنَّته سبحانه عليه بأن هداه للإسلام ومذهب الحق، ثم توفيقه للقيام بهذه العبادة، ثم تمكينه منها وقطع وشائج الشياطين من الأنس والجن عنه، كل ذلك لم يُنبهه إلي ما فعل الله سبحانه به ولم يحاسب نفسه علي عدم الاستفادة بهذه النعم استفادة سليمة ولم يأت بالعبادة التي وُفِّقَ لها علي نحو ما يريد الله سبحانه من الإخلاص والنية والتوجه فيدل بذلك علي الله جهلاً جاهلاً مغروراً سفيهاً، كم هو كريم فلا يحرمه من الوقوف بين يديه وهو بهذه السفاهات.

وأبرز ما يكشف عن ارتباط الأعمال الصادرة من المكلفين ولو كان صدوره في حالة وجود عذر كالنسيان والغفلة بالكون اشتراط

1- -- سورة آل عمران/164.

كثير من العبادات بوقت معين أو في ظرف تكويني معين فالصوم في شهر رمضان والحج في أيام معينة من السنة وفي مكان معين بل اتجاه معين في الصلاة وفي وقت معين فصلاة الصبح في وقت معين بركعتين والظهر والعصر بأربع ركعات أو بركعتين قصراً في أوقات معينة وأماكن معينة والمغرب ثلاث ركعات في وقت معين، كل ذلك يكشف عن أن المطلوبات الشرعية والمركبات الاعتبارية من قبل الشارع المقدس لها ارتباط وثيق بعالم الكون والفساد.

وكذلك المحرمات بعضها مختص بزمان معين أو مكان معين كمحرمات الحرم ومحرمات الإحرام والاعتكاف والمحرمات في المساجد وغيرها، وكذلك النكاح محرم بامرأة ومحلل مع امرأة أخري، مباح في حالة معينة محرم في حالة أخري، فهذه الارتباطات أما لأجل إن كسب المنافع المحددة والخيرات المعينة لا يتم إلا بتلك الشروط وتلك القيود أو إن هناك شروراً في عالم الكون والفساد لا تندفع إلا بأعمال معينة علي نحو معين في وقت ومكان معين، ولعله لأجل ذلك ما قيل من أن الأحكام الشرعية لأجل كسب المصالح ودفع المفاسد بامتثالها هي في متعلقات الأحكام، فالأمر بصلاة الآيات حالة الخسوف والكسوف وغيرهما من الآيات والأحداث الكونية لدفع الشرور المتوقعة من تلك الآيات كحجب

ص: 190

ضوء الشمس لفترة معينة بالقمر عن الأرض كلها أو بعضها أو حجب نور القمر عن الأرض كل ذلك يكشف عما قلناه.

ومن هنا نعرف مدي ما يحيط بالنعم الإلهية نتيجة انحراف الناس عن هذه الواجبات وارتكاب المحرمات وكذلك نتيجة عدم إتياننا بالعبادات بالنحو المطلوب، فإن الدواء الذي يصفه الطبيب إذا لم يستخدم بالنحو المطلوب فكثيراً ما ينقلب النافع ضاراً والمصلح مفسداً والشافي ممرضاً، فلا نستغرب مِمّا روي (رُبَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه)((1))

يعني يصير سبباً لابتعاده عن رحمة الله، وجملة وافرة من هذه الأعمال لها آثار ولوازم حسنة أو قبيحة وإن صدر من الإنسان في حالة العذر الشرعي كالغفلة والنسيان والنوم.

ومن هنا نعرف مدي قبح وشناعة الجرائم التي يرتكبها العبد من حيث يدري أو لا يدري في مسيرته ضمن سلك العبودية وأقبح شيء أن يدله الخالق برحمته وكرمه وعطفه وحنانه علي الأعمال التي تحميه من شرور الكون ومفاسد سلوكه وسلوك غيره، فبدلاً من أن يشكر مولاه علي إرشاده إلي هذه الأعمال وإلزامه بها ليحميه يعتبرها العبد - لوقاحته وجهله وتمرده - أوزاراً ومتاعب وقيوداً، وحينما يقوم بشيء من ذلك مع عدم إتيانه بها كما ينبغي يعتبره أنه قد أوصله إلي المراتب العالية وانه تعالي ملزم

1- -- البحار ج 89 ص 184 ح 19.

بقبوله وملزم بإثابته عليه ويصيبه الفخر والغرور فيبعده عن ساحة رحمته أكثر مما كان يتخيل انه قد اقترب منه، فعلي العبد أن يشكر علي الواجبات والمستحبات ويشكر علي تشريع المحرمات فانه ضمن نظام إسلامي عام اعتبر مِنَّةً منه سبحانه علي العباد: «لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَي الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ»((1))، وقوله سبحانه: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً»((2))، قوله سبحانه: «يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ»((3)).

ومنها تعرف سِّر ما روي عن النبي (صلي الله عليه و آله) (أما يخاف الذي يُحوِّل وجهه في الصلاة أن يحول وجهَهَ وجه حمار)((4))، وقوله سبحانه: «فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ»((5))، ذمهم علي الغفلة عنها مع كونهم من المصلين لا لأنهم سهوا عنها وتركوها بل لأنهم يصلون مع غفلة عَمّا هم فيه.

1- -- سورة آل عمران/164.

2- -- سورة المائدة/3.

3- -- سورة الحجرات/17.

4- -- البحار ج 81 ص 211 و 259.

5- -- سورة الماعون/4--5.

النصائح والفوائد

منهـا: يجب علي الإنسـان أن يعرف قـدر نفسه فلاـ يصـيبه الغرور إذا وُفِّقَ لعمـلٍ ما من الأعمال الصالحـة وتمكن من أداء واجب أو التزام لمستحب فإن الغرور يحبط العمل.

ومنهـا: يجب أن يلتفت المكلف إلي نفسه فلا يتخيل انه إن وُفِّقَ لعمل صالـح أصـبح لمجرد ذلك العمل في عِداد عباد الله الصالحين فإن العمـل إذا لم يُرافقه الإحساس بالتقصـير والاعتراف بأن ما أتي به كان الفضل الأكبر بل كل الفضل فيه لله سـبحانه فهـذا العمل يصـبح في حكم اللاغي.

ومنها: العمل الـذي يقوم به العبـد يجب الإخلاص فيه كما يجب أن يعتقـد إن تكليف الله سـبحانه له بالواجبات والمسـتحبات تكريم منه تعالي له ليتمكن من خلالها من ترويض نفسه وإصـلاحها وتطهيرها فان الجنة لا يدخلها من لم تطهر نفسه ولم تزكَ من الصـفات الخبيثة، والله سبحانه أمرنا بما أمر من العبادات تطهيراً

ص: 193

لأنفسنا وتزكيةً لها ولإعمالنا، فإن وُفِّقتَ لعملٍ فاشكر الله سبحانه عليه وإياك أن تتخيل -- فضلاً عن أن تعتقد-- انك أديتَ بما قمتَ به من الأعمال العبادية حقاً من حقوقه سبحانه بل اشكر الله سبحانه علي انه وَفَّقكَ لذلك، كما ينبغي أن تعلم ان كل عمل عبادي إذا لم يكن مع التوجه إلي الله سبحانه يصبح قشراً خالياً عن اللباب، فالعبد في القيام بين يدي الله سبحانه إذا لم تندمج نفسه بحالة الوقوف بين يدي جبار السماوات والأرض لم يكن ذلك الوقوف كما ينبغي.

ومنها: واعلم ان العبادة تلعب الدور المهم في إحراز مقام العبودية الحقيقية له تعالي كما تؤدي دوراً أساسياً في الإخلاص

والتعبّد، فمن يصلي أو يعبد طمعاً في الجنة ولأجل الجزيل من الثواب الموعود به لعباد الله الصالحين فهو في الواقع مندفع إلي نفسه وتحقيق مشتهياتها فقط وليس متعبداً حقيقة لأنه إنما يصلي ويصوم ويحج ويزور المعصومين(عليه السلام) بُغية تحقيق غاياته التي تشتهيها نفسه من فوائد الدنيا والآخرة فإذا انحصرت غاية العبادة في تحقيق مشتهياته فهو إنما يعبد نفسه لأنه لو تمكن من الحصول علي مشتهيات نفسه في الدنيا والآخرة بدون التعبد لله سبحانه لما تجشم العبادة، وكذلك من يتعبّد الله خوفاً من عقوبته وفراراً من ناره وعذابه في الدنيا أو في الآخرة فإنه يحب نفسه ويهواها فلا يريد لها ألماً أو عذاباً ولا يرضي لها تلفاً أو سحقاً في طبقات العذاب الإلهي ودركات جهنم، وهو

ايضاً في الواقع يَعبد نفسه ويطيع هواه – العياذ بالله – ولا يبعد أن ينطبق عليه قوله سبحانه: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ»((1)).

والعبادة الخالصة هي عبادة الأحرار الذين تحرروا من عبودية أنفسهم واخلصوا توحيده تعالي فعبدوا الله لأنه أهلٌ للعبادة والقسمان السابقان عبادة من يعيش في رِق وعبودية نفسه، أجارنا الله والجميع من تلك العبودية.

وقد نستغرب مِمّن يزور سيد الشهداء(عليه السلام) أو غيره من الأئمة والمعصومين(عليهم السلام) ويري لنفسه حقاً علي المزور، مسكين هذا الزائر وهو لا يعلم أن للمزور حقاً عليه إذْ سمح له بالمثول بين يديه، فعلي الزائر أن يشكر الله أولاً علي انه شرَّفَه بزيارة احد المعصومين(عليهم السلام)، ويشكر المعصوم(عليه السلام) انه سمح له بالدخول إلي حَرمه الشريف ثانياً، ومنها يجب أن نعرف إن من يترك العبادة فهو عاصٍ بلا ريب وكذلك من يرتكب شيئاً مِن المحرمات أو يخرج عن سلك العبودية الصحيحة فانه مذنب ليس في حق الله فقط بل هو مسيء تجاه المعصومين(عليهم السلام)، بل واتجاه الكائنات كلها لأن المعاصي كلها تؤثر سلبياً علي ما يحيطنا من الكائنات، ولذلك ورد في بعض الأدعية ما يقتضي أن هناك ذنوباً تمنع قطر

1- -- سورة الجاثية/23.

السـماء وذنوباً أخري تظلم الفضاء وأخري تسـبب الأمراض والأوبئة وأخري تكدر الأجواء بالكدر المعنوي الذي يسـبب انحراف الناس عن جادة الصواب، ومعلوم إن البلية إذا نزلت عَمَت وشـملت للصالح والطالح، فالذي يذنب أو يترك شـيئاً من الواجبات فإنه يسـبب هذه البلايا كلها وبـذلك يُسـيء إلي جميع الكائنات، ففي رقبته حقوق الله وحقوق العباد بل حقوق الكائنات كلها، لـذلك ينبغي للمذنب إذا وفّقهُ الله سبحـانه للالتفات إلي نفسه عليه أن يتوب إلي الله وعليه أن يطلب من الله سـبحانه أن يؤدي ما ثبت في ذمته من حقوق المخلوقين من جهة إساءته إلي الكائنات.

ومن هنا نعرف إن الكوارث التي نعيشـها سواء كانت طبيعية كالزلازل والفيضانات والقحط وكذلك المصائب التي نعيشـها من جهة إستيثار الظالمين بالفيء وتمكنهم من رقاب المسـلمين، كل ذلك مسـببٌ عن ذنوب المذنبين، فالله سـبحانه خلق هذه النعم لعباده وهو غير مفتقر إلي شـيء منها والعبيد بأنفسـهم وبذنوبهم وانحرافاتهم تسـببوا في نزول هذه الكوارث، قال الله سـبحانه: «بَلَي مَن كَسَبَ سَـيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِي-ئَتُهُ فَأُوْلَـ-ئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»((1))،

ص: 196

1- -- سورة البقرة/81.

وقال تعالي: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ»((1))، وقال: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَي ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ»((2)).

ولا ـ يغتر احدٌ منا فيتخيَّل أن المعصومين(عليهم السلام) أيضاً ابتلوا بالمصائب ولم يكن لهم ذنب إذ نعلم كما اشرنا فيما سبق إن ذنوب المذنبين تسبب هذه المصائب والبلايا إذا نزلت عَمّت، فالمذنبون أساءوا إلي أنفسهم وإلي الآخرين وإلي المعصومين(عليهم السلام) الذين تحمَّلوا البلايا التي تسببت نتيجة عصيان المذنبين.

هذا، والحمد لله رب العالمين..

1- -- سورة الروم/41.

2- -- سورة فاطر/45.

محتويات الكتاب

المقدمة. 9

معني التوبة والداعي إليها 13

شرائط التوبة. 17

الشرط الأول. 17

المنشأ الأول. 18

المنشأ الثاني. 21

المنشأ الثالث.. 23

المنشأ الرابع. 24

الشرط الثاني. 32

الشرط الثالث.. 45

الشرط الرابع. 47

الشرط الخامس... 48

الشرط السادس.. 50

ص: 199

التوبة واجبة عقلاً وشرعاً 57

التوبة واجب فوري.. 67

التوبة واجبة علي الكل. 81

ف--ائ--دة 91

في تحليل التوبة والاستغفار. 91

أو الاعتراف بالذنب من المعصوم. 91

تحليل التوبة والإستغفار. 91

ما يقتضيه النظر. 115

المنشأ الأول. 116

المنشأ الثاني. 131

المنشأ الثالث.. 136

النقطة الثانية طلب المغفرة بجد. 137

المنشأ الخامس... 143

الموانع والحواجب عن التوبة. 149

الفوائد المترتبة علي التوبة. 163

خاتمة فيها أمور. 173

الأول في الذنوب.. 173

المعاصي المغفول عنها 182

النصائح والفوائد. 193

محتويات الكتاب.. 199

ص: 201

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق ببغداد (339) لعام 2012م

تحت رعاية مكتب سماحة آية الله العظمي المرجع الديني الكبير الشيخ بشير حسين النجفي

جمهورية العراق - النجف الأشرف

http://www.anwar-n.com info@anwar-n.com

http://www.alnajfay.com info@alnajfay.com

هاتف: 33348 -- 033/ نقال: 07801004758

ص.ب:732 مكتب بريد النجف

ص: 202

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: 9

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 88318722 ـ 021

قسم البيع 09132000109شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز
القائمية
اصبهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩